# المـيت الحــــي

د. إيهاب سلام

روايـــــــة

رقـــم الإيـداع: ٨٦٢٣ / ٢٠٠٢
الترقيـم الدولـى: ٤ - ٢٣٧ - ٢٨٧ - ٩٧٧



**دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع**
٥٠ شارع الشيخ ريحان - الدور الأول - شقة ١٢
عابدين - القاهرة ☎: ٧٩٥٤٢٢٩
E-Mail: sbh@link.net

## ( ١ )

# عـــاش ميــتا
# ومـات حــيا

عشت جبانا مغلوبا على أمري، وربما أموت جبانـــا، أو اقضــــي علــى ضعفي. لذلك حينما بدأت في رواية سيرتي قمت بحجب أسماء البلاد التـــي عشت ونزحت إليها وكذلك أسماء الأشخاص الذين عرفتهم في هذه البـــلاد. والسبب في ذكر أسماء وهمية أننــــي لا أريـــد أن أتعــرض للاغتيـــال أو المحاكمة أو المطاردة. أريد أن أقضي عمري سعيدا هانئا، ولكن أجد نفســي مندفعة لرواية ما حدث لي. وقد فكرت أن لا أذكر أسماء وأنا أكتب وألجـــأ إلى النعوت فقط لكن النعوت كانت طويلة مما يثير الملل لدى القارئ. لذلــك عدلت عن فكرتي الأولى حتى يستسيغ القارئ السرد دون مضض ولا أجــد في السرد مشاكل تذكر.

قصتي غريبة فعلا. إن قصتي قصة رجل عاش ميتا. ومات حيا. فكيــف حدث ذلك؟ .. دعوني أروي لكم القصة. منذ أن ركبت الطائرة من بـــلادي وأسميها (قاف) في ساعة متأخرة من الليل. كان الغسق يملأ المكان. وكـــان المطار مظلما إلا من الإشارات الضوئية على الطرق الرئيســـة. والطـــائرة قابعة كالنسر توشك أن تختطف الناس في جوفها. تنتظر أن تمتلئ بالركـــاب لتطير بهم. دخلت الطائرة لأجلس على مقعد بالدرجة السياحية في منتصـــف الطائرة. كان شعري الأسود قد اختفى وحل بدلا منه شعر أشقر أو ذهبي إذا أردتم الدقة. وكانت عيناي العسليتان قد غطتها عدستين لاصقتين. تمرنــــت

كثيراً على استعمالهما حتى أجدت التمرين. وارتدي ملابس فاخرة لم أرتدها في حياتي الأولى كأني وجيه من وجهاء القوم. ولو عرف الناس وظيفتي الأولى لامتعضوا من الجلوس بجانبي.

حاولت أن أتطلع حولي على الجالسين لأكشف من منهم يرصدني أو من منهم يراقبني، أو أن هناك من يتتبعني من الوجوه التي رأيتها من قبل، غير أني لم أعثر على أحد. وتأكدت أنني إذا حفظت الوجوه المحيطة بي، وشاهدتها بعد نزولي من الطائرة، ثم رأيتها بعد ذلك في طريقي، فإن ذلك يدل على أن هناك مراقبين ورائي. ولماذا يتبعني أحد؟ .. لعلهم يخشون أن أفشي السر في نفي خارج البلاد. ولما حفظت الوجوه بدقة استسلمت لنوم عميق، لم أحس بمثيل له منذ شهور في المعتقل.

كانت المرة الأولى التي أركب فيها طائرة. ولا أعرف إلى أي بلد اتجه. وخشيت أن أقرأ التذكرة فأواجه بجهلي المطبق باللغة التي كتبت بها. وكنت قد سمعت ذات مرة أنها تكتب باللغة الإنجليزية. أما اللغة العربية فلا تستعمل في تذاكر السفر بالطائرات.

رحت في سبات عميق لم أفق إلا والمضيفة تنبهني إلى أن أفرد مائدة الطعام الصغيرة أمامي لأتناول وجبتي. هكذا قذفوا بي في الطائرة دون أن اعرف أصول ركوبها، وقذفوا بي إلى ذلك البلد الذي سأنزل فيه دون أن أعرف شيئا عنه. وأعطوني سلسلة من التعليمات حفظتها عن ظهر قلب. وكان علي أن اتبعها وإلا ضللت.

ومن ضمن التعليمات أن أنسي اسمي ولقبي، وتم التنبيه علي أن أذكر الاسم الجديد الذي اختير لي. وسقط الاسم القديم كما تسقط سلسلة ذهبية من

العنق لأسباب خارجة عن إرادة صاحبها. وعقدت لي عدة امتحانات للتأكد من أنني نسيت اسمي ولقبي السابقين وأصبحت لا أعرف غير اسمي ولقبي الجديدين. كانوا يعرفون أنني أمي، لا أقرأ ولا أكتب، ولا أتمكن إلا من التوقيع باسمي ولقبي القديمين عند استلام مرتبي، فعلموني اسمي ولقبي الجديدين والكتابة والتوقيع بهما باللغة الإنجليزية، وأتقنت الكتابة والتوقيع بهما، ولكن لم أعرف كيف أقرأ. ولم تكن هناك أهمية لأن أتقن القراءة باللغة العربية والكتابة بها لأن مقصدهم لم يكن البقاء في دولة عربية.

كان مرتبي الذي أوقع باستلامه في أول كل شهر مرتبا هزيلا، لذلك كنت أعيش في شقة صغيرة تحت الأرض مع عائلتي الكبيرة. ويبدو أن وضعي المؤلم هو الذي أوحي إليهم أن يلفقوا لي التهمة بجدارة.

لقد وجدت نفسي متهما بقتل رئيس دولة (قاف). كنت أقوم بتنظيف مكتب الرئيس وحجرته باعتباري من عمال النظافة بالرئاسة، ولم أتنبه إلى أن الرئيس جالس على مكتبه. وفجأة دخلوا علي، وأحاطوني. وشاهدت رئيس الدولة ينزف منه الدم، ثم وجه إلي كبيرهم سؤالا: لم قتلته؟ .. ولم يسألوني: هل أنت القاتل؟ .. ولم أنطق وقتها بشيء، أصابني ذهول.

وتم القبض علي وإيداعي السجن، وبسرعة عقدت لي محاكمة، ثم بعد أيام صدر ضدي الحكم بالإعدام، وتم التصديق عليه من الجهات الرسمية. وأودعت زنزانة منفردة استعدادا لأنال جزائي.

تم الإعلان عن إعدامي فجر يوم من الأيام، ونشرت الصحف في اليوم التالي نبأ توقيع القصاص العادل من قاتل رئيس الدولة.

وبعد يومين، كان كل شيء قد أختلف. كنت معتزا بشاربي، فتم حلقـــه. كنت أسود الشعر، فأصبحت ذهبي الشعر. وحولوا لون عيني. وهكذا غيروا من ملامحي ومعالمي. وغادرت البلد إلى بلد أخرى. لا أعرف لغة أهلـــها، ولم تطأ قدمي شوارعها من قبل.

وكانت التعليمات التي صدرت إلي أن استلم راتبا شهريا من مصـــرف معين، كتبوا اسمه في ورقة بلغة البلد الذي نفيت إليـــه. وأن أبـــرز جــواز سفري للمصرفي ليسلمني الراتب. وأن أقصد عمارة معينة بها شقة مؤجـرة باسمي الجديد. وأن أعيش فيها معتزلا عن الناس إلى أن يوافينـــي الأجـل. وذلك سوف يرفع من مقامي عندهم من ساع في مبنى الرئاسة إلـــى شـريد ثري منعزل عن الناس. وأفهموني أنني لو حدت قيد أنملة عن مخططهم فقد أفارق الحياة أو على الأقل يمنعون عني الراتب ويصادرون جــواز السـفر وأتحول إلى شريد فقير لا مورد له وقد يحدث أن أدخل سجن البلـــد الـذي نفيت إليه ولا اخرج.

وهكذا وأنا أعيش، كنت أعيش في فقر مدقع فكأني ميت. عشت ميتا وأنا بعد أن أعلن إعدامي أصبحت حيا. وعلى أن أمارس حياة جديدة باسم جديـد في بلد جديد. ولا أفكر يوما أن أعود إلى الوطن، أو استرد اسمي المـــؤود وإلا عدت ميتا.

## ( ٢ )

# أقـتل الشـــوق
# أدفـن الفكـر

قارنت حالي وأنا في بلدي وبين حالي في هذا البلد الجديد. رأيت اختلافا كبيرا كاختلاف السماء والأرض.

بدأت حياتي فقيرا فقرا مدقعا. كنا نتغذى ونتعشـــى فـولا أو فلافـل أو باذنجان أو بطاطس تشتريه أمي لنا من السوق. تخشى لأن تصنعه في البيت لأنها سوف تشتري موقدا أو زيتا وتقشر وتهرس وتطبخ، وكل ذلك يكلفـــها مالا لا يوازي المال الذي تصرفه على الشراء من السوق – هكذا كان رأيها – وكان أبي يلقي عليها عشرة قروش كل صباح ويقـــول لـــها: تصرفـــي. ويذهب إلى عمله عتالا في مخازن السكك الحديدية.

ولم تكن تكف عن الإنجاب كأنها أرنبة ولود. لم يرها النـــاس إلا وهـــي حامل. وقالت يوما: ماذا تفعل هذه القروش العشرة؟ .. فيقول لها: الشـــاطرة تغزل برجل حمار. وأين هي رجل الحمار؟ ألا تحتاج إلى مـــال لشـــرائها. وأين هو الغزل. ألا يتطلب رأس مال؟ .. تستسلم دائمـــا وتتســـاءل: ولـــم يفترض أنني ماهرة في الغزل؟ .. وتتصرف بالتسول مرة. أو بـــالاقتراض مرة ولا ترد القرض. وقد لا يقبله من أعطاها إياه. فقد أعطاها إيـــاه فـــي صورة صدقة، ولم تكن تدري. وكانت تأخذنا – أنا واخوتي – في المواســـم والمناسبات إلى ضريح من الأضرحة القريبة منا لنتناول فيه الصدقات فـــي صورة أكل: لحم أو أرز مدفونا في خبز مبلول من أثر ماء المأكولات.

ولما سألت أبي: لم لا أدخل المدرسة مثلي مثل الآخرين من الفتيان؟ .. أجاب إجابة قاطعة: ليس لدي إمكانات. وهكذا أصبحت أميا لأن قدمي لم تطرقا باب المدرسة.

جئت يوما أبلغ أمي أنني قبلت ساعيا في الرئاسة. زغردت. وجاء أبي فسمع الزغرودة، وتساءل عن السبب، فأخبرته عن سببها. استغرب وقال مستعجبا: الرئاسة. لم يصدق لكني عملت هناك. وتحسنت حالنا قليلا. وبدأت أتعود على أن أنظف وامسح وأزيل التراب من على المكاتب والأثاثات. وأتقاضى مرتبا هزيلا لكنه أنقذني وأنقذ عائلتي من الجوع. ولو أننا لم نصل إلى درجة الإشباع، لأنه لم يكن يكفي في ذلك الزمن الرمادي. والأم أرنبة لا تكف عن الحمل. وقد يموت أطفالها من الجوع لكنها تستمر في الإنجاب حتى تعوض ما فقدته كأنها فقدت لآلئ منثورة.

أما الآن فأنا وحدي في بلد غريب عني. لا أعرف لغة أهله. أعيش في شقة مؤثثة. صغيرة حقا لكنها كافية. حملني سائق سيارة الأجرة من المطار إلى العنوان الذي سلم إلي قبل الرحيل. وفتح لي جارس المبنى، ولما عرفني أعطاني مفتاح الشقة. كانت الترتيبات معدة فعلا. أسلمه جواز السفر، فينحني مبتهجا، ويسلمني مفتاح الشقة. ويصعد معي إلى الدور الثاني إلى شقتي. ويفتح الباب وينصرف. ولما دخلت رأيت على شمالي مطبخا وعلى يميني حائطا به دولاب يمكن أن أضع فيه البصل والثوم والصلصة والأشياء التي لا تحتاج لوضعها في الثلاجة. ولما تعمقت في الشقة وقد انسحب الحارس وقفل الباب، وأنا أحمل حقيبتي بها ملابس جديدة من كل نوع ملابس داخلية وخارجية. وضعت الحقيبة وعدت لأفحص الشقة. تأملت المطبخ فوجدت أن به كل المعدات. ثلاجة وبوتاجاز وأكواب وأطباق ومعدات المائدة كالسكاكين

والشوك والملاعق. ودخلت إلى الحمام فوجدته نظيفا تحيط حمامه الصغير ستارة بنية. وبه غسالة كهربائية. ودخلت إلى حجرة صغيرة بها كنبة تصلح أن تكون سريرا. ثم تليها حجرة أخرى واسعة بها سريران أو كنبتان تتحولان إلى سريرين في المساء ويمكن للمرء أن يحولها إلى كنبتين في الصباح، ولو أني اكتشفت ذلك بعد لأي فقد كنت أنام على حصيرة خشنة على الأرض في بلدي. ثم هناك في نفس الحجرة مائدة صغيرة حواليها أربعة مقاعد. ودولاب في مواجهة السريرين، ومقاعد خشبية ذات شلت إسفنجية. ومائدة صغيرة أمام المقاعد، وضعت عليها مزهرية خالية من الورد. كل ذلك هو الثمن؟ .. ثمن اتهامي بقتل رئيس الدولة والحكم علي بالإعدام وتهريبي خارج البلاد باسم جديد لأحيا حياة جديدة ليس فيها ماض، على أن لا أتفوه بكلمة أو انطق بحرف مما حدث. وإلا تم تنفيذ حكم الإعدام في دون أن أدري. وإذا اشتقت إلى بلادي يوما، فعلي أن أقتل الشوق، وإذا فكرت يوما في عائلتي الكبيرة، فعلي أن أدفن الفكر ولا أذيع خبرا.

وفي اليوم التالي، بعد نوم قلق، ربما لأني غيرت مكان نومي من زنزانة في سجن بلدي، إلى شقة في بلد جديد، ذهبت إلى المصرف. ومعي ورقة بها رقم حسابي الجاري واسم المصرف، قدمتها للصراف، فسألني بلغته كم أريد، لم أدر بما أجيب. طلب واحدا ممن يعرفون لغتي، وسألني: كم تريد؟ .. قلت له: على الأقل ثلاثة أرباع ما في الحساب.

تكلم الرجل مع الصراف، فأعطاني شيكا لأوقعه. وقعته بالطريقة التي علموني إياها في بلدي القديم. وقد تذكرت المثل الذي يقول: التعليم في الكبر كالنقش على الماء وفي الصغر كالنقش على الحجر. وكنت قد تعلمت بصعوبة في الفترة بين انتظار الإعدام إلى تهريبي خارج البلاد كيف أوقع

الإمضاء الذي أبلغ به المصرف في البلد الجديد (ميم). وتـــأمل الصـــراف التوقيع وطلب جواز السفر، فأطلق آهة منه، عرفت منها أن لي شأنا وأنا لا أدري. ولكن ما هو مكتوب في جواز السفر لا أعرفه لأنه مكتوب بلغة بلدي واللغة الإنجليزية، واللغتان لا أعرف فيهما حرفا.

حاولت أن أعرف هل أنا مراقب؟ .. تلفت حولي بعـــد خروجـــي مـــن المصرف، لم أجد أحدا يتتبعني. وكان المصرف قريبا من البيت، فلم أجـــد مشقة في الوصول إليه، ولم يحدث أن تهت عنه. وقررت أن اشتري شـــيئا لآكله، وإذ بي أمر على مطعم، فوجدت أن أدخله لعلي آكل فيه، وتفـــاهمت مع النادل على أن يأتيني بأرز، وفي نفس الوقت، نصف دجاجة، وســلاطة. وتوقفنا كثيرا عند فهم كلمة سلاطة، حتى رأيت نادلا آخر يحملها إلى مـــائدة أخرى، فأشرت إليه بها، ففهم. ونطق باسمها، فبدأت أحفظه. حفظت نطـــق ألفاظ الأرز والدجاج والسلاطة بلغة البلد الجديد. سألني ما إذا كنـــت أريـــد خمرا، فلم أفهم. سألني ما إذا كنت أريد بيرة، فرفضت. وقلت لـــه: مـــاء. استغرب الكلمة فأشرت إليه بكوب ماء موضوع على المائدة قريبة، ثم مثلت أمامه أنني أشربه ففهم.

استغرق النادل معي كثيرا من الوقت، وظهرت عليه علامات السأم. وأنا أردد في رأسي الكلمات الأربعة التي تعلمتها. وسوف آتي لأطلبها في المـرة الثانية. يجب أن أبحث عن مدرسة أتعلم فيها لغة هذه البلدة (ميـم)، فمـــادام معي نقود كافية فلم لا أتعلم. ما منعني منن التعلم هو أبي الذي كان عتـــالا فقيرا، واعتقد أن النقود كثيرة الآن، لقد اجزلوا لي العطاء حتى لا أعـترض على قبولي الاتهام بالقتل، وتحملي العقوبة الصورية، وموافقتي على مغادرة (قاف) بلدي تحت جنح الظلام والتزام الصمت إلى الأبد.

وجاء النادل بالأكل. ووضع بجانب الدجاجة بعض الخضراوات ففرحت، ووضعتها على الأرز. وأكلت حتى شبعت. لم أذق الدجاج في حياتي الأولى. وإن كنت قد أكلت اللحم حينما كنا نتسابق إليه على موزعه أمام الضريح. ونتصارع لنستلم الخبز به اللحم. واستغربت فعلا أنني كنت أعيش في بلدي، ولو أني كنت في حكم الميت. والآن أنا ميت في حكم القانون، تم إعدامي، ولو أني أعيش في بلد آخر. غريبة هي الحياة! .. ماذا يفعل أبي وأمي الآن؟ .. وماذا يفعل أخوتي؟ .. هل يطاردهم العار أم أن الناس لم تلتفت إلى مرتكب جريمة قتل الرئيس؟ .. لعلهم عرفوا أن أخاهم قتل الرئيس، وأنه تم الحكم عليه بالإعدام، وأن جثته تم دفنها في مقبرة مجهولة المكان تحت التراب، وأن قبره يجب أن يكون غير معروف للناس، ولم تسلم جثته إلى ذويه، لأن هذه هي مشيئة الحكام الجدد، ولعلهم لن يعرفوا أبدا أن أخاهم لا يزال على قيد الحياة. ويأكل الآن أرزا بالخضراوات. ومعه نصف دجاجة، ويزدرد الماء بنهم حتى أنهى زجاجة الماء الصحي. وأن أخاهم معه نقود لم يحلم بأن تكون في جيبه من قبل.

( ٣ )

# حلـم غــريــب
# أم كــابــوس لطــيف

هل أدفن نفسي في شقتي؟ .. هل استمر سجينا في هذه الشقة في ذلــــك البلد الجديد؟ .. لأخرج وأتفسح، وأفرج قليلا عن كربي، الجيب الآن مـــلآن بالمال، والملابس فاخرة. الحمد لله أنهم لم يشتروا لـــي ملابــس عـــامل أو ساعي، إنما اشتروا لي بذل فاخرة، وارتديت واحـــدة منــها فـــي ســـفري. بالإضافة إلى القمصان والملابس الداخلية وثياب النوم. لكنهم لـــم يضعــوا أربطة للعنق ليبدو الإنسان وجيها. لعللهم أدركوا أنني ساعي لا يفـــهم فـــي أربطة العنق.

خرجت والثلج القطني بدأ يتساقط. مشهد لم أكن أفكر يوما أن أراه. لـــم يكن الجو باردا، كان نقيا، تستمتع فيه بالتنفس الهادئ الجميل. فهمت فيمــــا بعد أن الثلوج القطنية تتساقط فتوقف تيارات الهواء الثلجية وتحيل المكــــان إلى مكان دافئ، لأنها تحصـــــر حـــرارة الأرض بيـــن الأرض والســـحب المتراكمة السوداء.

عبرت الشارع، أتمشى تحت المنازل، تفاديا للندف، حتى صادفت ملـــهى ليليا، وماذا لو كان غاليا؟ .. هذه مرة أدخله ولو وجدته غاليا فلن يراني بعد ذلك. ولكن لما دخلته وجدته مقهى وليس ملهى. نادرا ما كنت أجلـــس فـــي بلدي القديم إلى مقهى لأن المال لم يكن متوفرا. كان ثمن الشاي أو القهوة أو النارجيلة يضلع الجيب ويمكن أن يسد رمق أخ من أخوتي الصغار، لذلـــك

كنت استنكف أن اتخذ المقهى مجلسا لي. أما الآن وقد أجزلوا لي العطاء فلا بأس أن أتمتع. أنا محكوم علـــي بالإبعـــاد، ولا يجـــوز أن أعـــترض، إن اعتراضي سيذهب سدى، وقد يتم تصفيتي. ولم اعترض؟ .. هل كنت فـــي بلدي سوف أصل إلى هذه المرتبة من الرقي؟ .. إنني أعيش في حلم غريب أو كابوس لطيف لا أدري بالضبط فالعز الذي أعيشه يلونه الشوق للوطـــن فيبدو عزا مرا أو مرا لذيذا.

لما دخلت المقهى، جاء نادل يسألني ماذا أريد؟ .. قلت له بلغة عربيـــة: شاي. سمعت ضحكة لفتاة، وغرقت في الضحك، لما استمررت أردد كلمـــة الشاي باللغة العربية. ونطقت اسمه باللغة الجديدة لغة (ميم). التفـــت إليـــها وسألتها: هل تجيدين العربية؟ .. قالت: وأسوقها أيضا. سألت: مـــا هـــي؟. قالت العربية. مرحة تلك الفتاة جعلت الدفء يدخل قلبي مـــن أول الكـــلام معها، شعرت فجأة أنني انتقلت إلى الوطن العزيز. ثـــم انتقلـــت للجلـــوس بجانبي. وسألتني من أي بلد أنت؟ ... قلت: ليس من التعليمـــات أن أتفـــوه باسمها. قالت: لا تقل. أنا عرفت من أي بلد أنت. أنا من نفس البلد (قاف).

ثم سألت: ماذا تعمل؟ ..

هل أجيب عليها وأقول لها بصدق أم أكذب. قلت لـــها: إننـــي ســـائح. استغربت قولي، وسألت: وهل تسيح في بلاد لا تعـــرف لغاتـــها؟ .. قلـــت بسذاجة: ليس مصرحا لي بالتصريح. قالت: على راحتك. سألتها: وأنت ماذا تعملين؟ .. قالت دون أن تعترض لأني لم أبح لها بعملـــي فكيـــف تصـــرح بعملها: راقصة. لكن ليس في هذا المقهى. اندهشت وأنا أقول: راقصـــة؟! .. قالت ساخرة: راقصة في المساء وطالبة في الصباح. سألت: ماذا تدرســـين؟ .. قالت: أدرس نظرية الذرة؟ .. قلت : وما هـــي الـــذرة؟ .. ســـألت: ألا

تعرف؟ .. قلت: الحقيقة أنني جاهل وأمي .. حتى لا أعرف اللغة العربية كتابة. وكما تسمعين لا أتكلم إلا باللهجة العامية لبلدنا (قاف). أنا أبحث الآن عن مدرس أو مدرسة أتعلم منه لغة هذا البلد الذي أعيش فيه.

سألت مندهشة: ألست سائحا؟ .. ثم سألت: ألم تقل لي إنك سائح؟..

جاء النادل بالشاي، ووضعه أمامي، وحاولت أن أتملص من الإجابة، غير أنها رددت السؤال مرة أخري، فقلت لها هامسا: يبدو أنني مجبر على العيش في هذا البلد إلى أجل غير مسمى. قالت مستغربة: أنت حكايتك حكاية. قلت هامسا: وغير مصرح لي بحكايتها. سألت: معنى ذلك أنني لا يجوز أن أسألك أي أسئلة؟ .. قلت: نعم .. أرجوك. ثم سألتها: لكن كيف توفقين بين الرقص والدراسة؟.. قالت: إن نمرتي في الملهى الليلي تبدأ في الساعة الثامنة وتنتهي في الساعة التاسعة. وأعود لأستذكر حتى الثانية عشرة. ثم اذهب إلى الجامعة في الصباح. وأدرس حتى الثانية عشرة بعد الظهر. وأعود لأنام قليلا. وقد أخرج الساعة السادسة لأتمشى أو أجلس في هذا المقهى. سألتها: هل بيتك قريب من هنا. قالت: أنا أحب القرب. الشيء البعيد هو الجامعة، لذلك اضطر إلى أن اركب المترو في الصباح إليها. سألتها: وهل الأساتذة يعرفون أنك راقصة. قالت: لا .. أنا في الليل ألون وجهي بالمساحيق فيختفي شكلي تماما. وأرقص الرقص الشرقي فيستمتع رواد الملهى به. سألتها: ألست في بعثة دراسية؟ .. قالت: لا .. جئت لأتعلم على حسابي. غير أن والدي أصيبا في حادث وامتنعت عني نقودهما. لا أدري ربما ماتا .. ولذلك اضطررت للعمل حتى استكمل تعليمي. قلت: وألم تجيدي غير الرقص تعملين به؟ .. قالت ضاحكة: وماله الرقص .. إنه يبعدني عن عيون الجواسيس .. ربما لو عرفوا أنني أدرس الذرة لقتلوني ..

ارتعدت من سيرة القتل. وماذا يحدث لو عرفت أنني متهم بالقتل وأنني مبعد عن بلدي؟ .. يجب أن أكون كتوما كما صدرت إلي الأوامر قبـــل الحكـــم بالإعدام.

قالت: أنا أستأذن لأن نمرتي حانت. قلت: هل سمحت لي أن أراك وأنت ترقصين؟ .. قالت: وما المانع؟ .. وسوف نتعشى على حسابي .. هذه المرة فقط، فأنت من بلدي.

في الطريق إلى الملهى برزت في رأسي فكرة، جعلتني اضطرب قليـــلا. ما يمنع هذه الفتاة أن تكون مدسوسة في طريقي لتراقبني؟ .. ومـــا المـــانع حقا؟ .. لتراقبني فهذه هي المراقبة اللذيذة. يظل هذا الجمال يعيـــش معـــك كظلك يرصد حركاتك وسكناتك. أليس ذلك ممتعا؟ .. وأنت الآن ميت فلـــن تشعر بقيد على حريتك. أنت حي تفكر وتشعر وتحس وتأكل وتشرب ربمـــا. لكن تم أقصاؤك من وطنك فكأنك مت. أنا الميت الحي. صنف من النـــاس نادر الوجود ولكنه موجود. ولم تذهب بعيدا؟ .. أليس هـــؤلاء المنفيـــون أو اللاجئون يعدون في حكم الموتى لأنهم بلا أوطان تحميهم.

رأيتها وهي ترقص. رائعة فعلا فاتنة عارية. لأول مرة أرى امرأة شـــبه عارية. حتى أمي لم أرها في مثل هذا الوضع صدفة رغم ضيـــق المكـــان الذي نعيش فيه.

كان النهدان يترجرجان. والفخذان يرتعشان. والعينان تغمزان. واليـــدان تلعبان. والقدمان تتحركان كأنها درست الرقص من قبل عدة سنوات. رقص شرقي يعجب الأجانب أهل (ميم). وتذكرت كيف كانت أمي متحفظة، تقضي حوائجها مستترة. تبدل ملابسها بعيدا عن العيون. أولادها الذكور – وخلفـــها

كلهم ذكور – لم يروا منها حتى شعرها. تقفل عليها بـــاب حجرتـــها هـــي وزوجها. لا تسمح لولد أن يمرق داخلا إلا إذا طرق الباب. كنت أتطلع إلـى بائعة اليانصيب في الطريق، فتاة متحفظة هي الأخرى، ولكن كل شيء فيـها مستتر فيما عدا وجهها. كانت إذا جلست علـــى الرصيـــف، أجلـس علـــى الرصيف المقابل، حتى إذا ما ارتفع ثوبها أرى لحمها، وكثيرا مـــا يرتفـــع، واكتشف أن سروالا يغطيه بإحكام. والآن أرى هذه الراقصة تتثنى وتتـــأود عارية لولا أن بذلة الرقص تستر عورتها قليلا. واستغرب كيف تدرس الذرة وكيف تسمح لنفسها أن ترقص وهي تتعلم؟ .. أنا الأمي لا أفكر أن أرقص؟ .. وهل أنت تعرف كيف ترقص؟ .. إنك حتى لم تتعلم الكلام. كنت تتلجلـــج وأنت تتكلم حتى مع أخوتك الصغار. تبدو لمن يراك أنك بليه كمـــا يظـــهر عليك من التلجلج وجدوا فيك الصيد المنشود ليلفقوا له التهمة؟ ..

جاءت بعد الرقص، وقد ارتدت ثيابها كاملة. وسألت: هل تتعشى؟ ..

قلت: وما المانع؟ ..

قالت: على حسابي.

قلت: أنا طوع بنانك.

طلبت لي عشاء فاخرا. يبدو أنها تكسب من حرفتـــها الكثـــير. أو لعـــل الملهى يصرف لها تلك الوجبة ثوابا لما أدته من أداء.

سألتني: هل تعرف كيف تذهب إلى بيتك بعد أن نغادر؟ ..

قلت: ما عليك سوى أن تأخذيني فقط إلى المقهى الذي كنا فيـــــه. وأنـــا اعرف الطريق بعد ذلك.

قالت: على العموم أنا اسكن بالقرب من المقهى.

وللمفاجأة الكبرى اتضح أنها تسكن في نفس العمارة التي أسكن فيها. أنا أسكن في الدور الثاني. وهي تسكن في الدور الرابع. حملنا المصعد إلى الدور الرابع لأرى شقتها.

لما دخلنا، خلعت ثيابها أمامي، وارتدت منامتها، وأنا أتطلع بها كالمبهور. وسألتني : يبدو أنك لم تر امرأة من قبل.

قلت: ولا حتى في المنام.

قالت: كيف؟ ..

قلت: كنت أعود إلى بيت عائلتي مهدود الحيل مكدودا. وأنام دون أن احلم. ولما استيقظ أذهب إلى عملي. وأدور في الدوامة من جديد.

قالت ساخرة: إذن أنت رجل خام. ماذا كنت تعمل؟

قلت: وماذا تنتظرين من رجل أمي أن يعمل هو لا يقرأ ولا يكتب وممنوع من الكلام لأحد.

قالت:ما دمت ممنوعا من الكلام فلا تتكلم. ثم سألتني: هل تعرف كيف تدلك؟ ..

سألت مستغربا: أدلك؟ ..

قالت: بعد الرقص احتاج إلى تدليك. أنا أصنعه بنفسي. لكن ما دمت موجودا فلا بأس أن تقوم به.

قلت: علميني.

قالت: أنت خيبة خالصة!! ..

( ٤ )

# ألمــــس
# ولا تتـذوق

أدركت من الوهلة الأولى أن الراقصة كائن غريب. إنها لا تصل بي إلى نقطة المنتهى. تسمح لي بأن ألمس، وذلك من خلال التدليك. وحين تفور أعصابي وتثور، تمنعني من مواصلة الزحف. لا تسمح لي أن أتذوقها كأنها تقول: ألمس ولا تتذوق.

لما استكفت من التدليك بعد أن علمتني إياه عمليا. خرجت من عندها إلى الدور الثاني من العمارة تائها. أقول أنني لم أشعر بالشهوة في حياتي الماضية أبدا. يبدو أن الفقر سحب مني كل حيوية لذلك كنت أقول إنني ميت بالفعل. ولما بعثت في الحياة تغيرت ظروف حياتي. شعرت بنار متقدة في كل جسدي ولا سبيل إلى إطفائها. رقدت حتى بردت النار واصبح الجسد هشيما.

اتفقت معها على أن تعطيني درسا كل يوم لمدة ساعة بعد الساعة العاشرة مساء حينما تعود من الملهى. واختلفنا حول اللغة التي يجب أن أتعلمها أولا. كانت تريد أن تعلمني اللغة العربية لغة بلدي التي لا أعرفها. وتعلمني أسرارها وكيف أكتبها. ولكني كنت أريد أن أتعلم لغة البلد الذي أعيش فيه. حتى إذا دخلت متجرا سألت عن أشياء بلغتهم فيعرفونها أو إذا دخلت مطعما أستطيع أن أتفاهم مع النادل بفصاحة دون تلجلج. وأخيرا اقتنعت لكنها أصرت أن تعلمني اللغتين في وقت واحد كتابة وقراءة، لأن

اللغة الجديدة الثانية لغة ميتة. لا يعرفها إلا سكان (ميم) البلد الذي نعيش فيه. وهم لا يتعدون عشرة ملايين نسمة. وأبديت لها شكي في ذكائي أن أستوعب لغتين في وقت واحد، غير أنها لم تعبأ باعتراضي.

كنت أطلب أن أدلكها بعد عودتها من الرقص، فأحيانا كانت ترفض، وأحيانا تقبل. ولكن بشرط ألا أتعدى حدودي. قلت لها يوما: أنت بهذه الطريقة تعذبينني. قالت: إذن لا تقم بالعمل. قلت: يكفي ما أقوم به .. يكفي. أنا راض. وسألتني: ألم تتصل بامرأة من قبل؟ .. قلت: أنا محروم من المرأة ... قالت بصراحة: إذا سلمت لك نفسي فقد أحمل وأنا أخاف الحمل. وإذا حملت فيتعذب الطفل معي كما أتعذب.

قلت: نتزوج؟ ..

قالت: كيف أتزوج من شخص لا أعرف ماضيه؟. ولا أعرف شيئا عنه. ثم هو باق في هذه البلاد بينما أنا سأعود. هل يمكنك أن تعود معي؟ ..

أجبت بصراحة: لا .. قالت: حينما أعود ومعي طفل ماذا سأقول لهم .. تزوجت. سيسألون: أين زوجك؟ .. ولم لم يأت معك. لن يدركوا أنني صادقة وسيظنون أنني أخدعهم.

قلت: لنتزوج وتبقي معي؟ ..

قالت: ومن أين سوف نعيش؟ ..

قلت: إن هناك راتبا شهريا يسدد في حساب الجاري في المصرف .. وهو يكفي.

سألت: كم تتقاضى؟ ..

قلت: لا أعرف بالضبط لأني لا آخذه كله. ولكن مضى الآن أكثر من شهر على دخولي هذا البلد .. وأنا أشعر أن ما معي من نقود يفيض كثيرا عن حاجتي. ولم أستعمل المبلغ كله.

قالت تكسر مجاديفي: ولكن حينما نكون معا لن يفيض. وسنعيش في فقر مدقع.

قلت: ولم لا تعملين؟ ..

قالت: أعمل .. وماذا أعمل .. عالمة ذرة. إذا انتهت دراستي فلا حق لي البقاء في هذا البلد. ولا يمكنك أن تحتجزني بدعوى أنك زوجي لأنك ليس من مواطني هذا البلد ..

قلت: ألا تحضرين للدكتوراه في الذرة كما سبق أن قلت لي. فلم لا نرحل لأي بلد وتعملين فيه؟ ..

قالت هازئة: وأصرف عليك يا رجلي.

خجلت من كلامها وسكت، فقالت: لا يمكنني أن أعيش مع رجل لا أعرفه. واضحي بمستقبلي من أجله. وأنا لا أعرف عنه شيئا.

قلت: ولكني – كما قلت لك من قبل – ممنوع من الكلام. غير مصرح لي بالكلام. أخشى لو صرحت لك أن أختفي من الوجود نهائيا. وحينئذ ستقولين إن الميت مات بالفعل.

قالت ضاحكة: هل تظن أنني لن أعرف؟ .. أنا يمكنني أن أعرف إذا رجعت إلى جرائد البلد في الأوقات الماضية. ربما تكون هاربا من حكم معين .. وتتخفى في هذا البلد.

طأطأت رأسي. وقلت: لا داعي لأن نتزوج. ولا داعي لأن تعلميننـــــي. وأنا أستأذن.

وجدت نفسي سوف أتورط بالاعتراف عن كــــل شــــيء لذلـــك آثـــرت الانصراف.

غادرت شقتها غاضبا، وعدت إلى شقتي. أين سأخرج؟ .. كنـــــت فـــي الصباح حتى المساء أعتكف على القراءة والكتابة والقيام بالواجبات التعليمية التي تقررها علي، والآن لم اعد أطيق البيت. أشعلت النــــار فـــي فـــؤادي. وتركتني أتلوى من الألم. كان الفقر مفيدا في غياب الألم. أما الآن فإن طلب المتعة صار عذابا.

رن جرس الباب. لأول مرة يرن الجرس. من يعرفني في هذه البلـــــدة. لآبد أنهم زبانية الحكم في دولة (قاف) جاءوا ليحذروني من التفوه بكلمة. أو لعل حارس العمارة جاء يطلب شيئا. فتحت الباب وجدت سارة واقفة أمامي، ترتدي ثيابا تكشف عن صدرها وكتفيها.

قالت: هل غضبت مني؟ ..

قلت: ولم أغضب منك؟ .. أنت حرة في جسدك. وليس لي حق أن ألمسه بأي شكل من الأشكال إلا بموافقتك.

دخلت. وسمحت لها بالجلوس، فالبيت ليس فيـــه وثــائق ولا كتـــب ولا أوراق. دخلت وقالت: أنا أحافظ على نفسي. إن الأطفـــال مســـئولية. ولـــن استكمل درجة الدكتوراه لو حملت منك.

قلت أهز رأسي بالإيجاب: لك كل الحق.

نظرت فوجدت جواز سفري ملقى على المائدة الصغيرة، وبجانبه حافظة نقود كنت قد اشتريتها منذ أيام، وأنا أتجول في الشوارع هائما على وجهي، ومفتاح الشقة في سلسلة مفاتيح يبدو وحيدا فيها مثلما أنا وحيد في هذه الشقة. مدت يدها لتشاهد جواز السفر. قرأت اسمي: عمران خليل عدنان. وسألت: هل هذا اسمك؟ ..

قلت: نعم .. هل أنت تحققين؟ ..

لم ترد وقرأت: الوظيفة موظف إداري بسفارة (قاف).

تساءلت: أتعمل موظفا ولا تقول لي.

قلت: أنا لا أعمل. ربما ذلك من قبيل التمويه حتى يكون وجودي في هذه البلاد مشروعا.

سألت: ألم تذهب إلى السفارة؟ ..

قلت: أنا لا أعرف شيئا عنها حتى مكانها. ولا أعرف أنني مقيد عليها. لولا أنك قرأت لما عرفت لأني أجهل اللغة تماما. قلت لك من قبل إنني أمي.

استمرت تقرأ. وقلبت جواز السفر ثم وضعته على المائدة الصغيرة. وقالت: أنت حكايتك حكاية.

قلت: وأنت هل تراقبينني؟ ..

سألت: ولم أراقبك؟ ..

قلت: لا أدري ربما تكون تعليمات صدرت إليك. ربما السفارة ذاتها أرسلتك ورائي عسى أن أتفوه بكلمة فتخبري المسئولين بها.

قالت: أنا لا صلة لي بالسفارة على الإطلاق. ولم أذهـــب إليـــها أبـــدا.

سألت: هل هي مصادفة أن تكون شقتك في نفس العمارة التي أسكن بها؟ ..

قالت: وهل أنت حينما دخلت المقهى أول مرة والتقينا شاهدتني هناك. أم رأيتني أدخل بعدك.

قلت: لا شاهدتك هناك. كنت تجلسين وحدك تحتسين فنجان قهوة.

قالت: وكيف عرفت أنك سوف تدخل هذه المقهى. وأتعرف بك فيها. ثـم هل أنا الذي دعوتك لترى رقصي؟ ..

قلت: لا .. أنا الذي دعوت نفسي.

قالت: وهل كنت أعرف أنك تسكن معي في نفس العمارة؟

قلت: الحقيقة .. لا ..

تنهض من على المقعد، وتتقدم مني، وتقرصني في خدي، وأنـــا أجلـس على السرير، وتقول: كيف إذن كنت أراقبك؟ .. وهل أنت فار من جريمـــة؟ ..

أقول غاضبا: لن أقول شيئا.

في هذه اللحظة، شددتها إلي وقبلتها.. سحبت فمها مـــن فمـــي، وهمـــا ملتصقان بحرارة، وقالت: لم هذا الغدر؟ ..

أحط خصرها بيدي حتى لا تفر مني، وقلت: بدأت أحبك يا مثيرة .. يـــا فاتنة.

قالت: أنا أحبك لكني متيقظة لأي حركة غدر .. لا تحاول أن تلمسني.

قلت: أنا لمستك بالفعل، ولكني أحاول أن أتذوقك .. ما اسمك؟ ..

قالت: ألم أقله لك من قبل.

قلت: يبدو أنه لم يكن مألوفا لي فنسيته.

قالت: اسمي سارة. وأنت عمران.

ضحكت وأنا أرتاب فيها وقلت: نعم اسمي عمران خليل عدنـــان. ولـــن أبوح بشيء غير اسمي.

سألت ساخرة: وهل أنا ألح عليك .. لقد عرفته من جواز الســـفر .. ولا حاجة عندي لأشياء أخرى.

(٥)

# جليد البلد
# نار السفارة

كان على شخص مثلي ميت حي أن يغزو العلم بداية. لذلك تعلمت على أيدي الراقصة الذرية سارة أو الذرة الراقصة أصول اللغتين العربية واللغة الجديدة، لغة (ميم). وقالت إن من الممكن أن أتعلمهما قراءة وكتابة في ظرف سنة كاملة. قلت لها إن الوقت لا أهمية له عندي لأني أعيش بلا هدف. وسوف انتقل من الآن فصاعدا من هدف إلى آخر حتى أعود حيا. وكان الموت في نظري هو نفي من الوطن بلا جريرة. والحياة في نظري هو أن أشعر بكياني كإنسان يقرأ ويكتب ويتعلم ويأكل ويشرب دون إسراف. ويتنفس بحرية.

ثم قررت ألا أعتمد على سارة في تعلم لغة بلد (ميم). على أساس أنني رأيتها مشغولة بدراساتها. وقررت أن ألتحق بمدرسة لتعليم هذه اللغة بعد أن تجاوزت فيها شوطا طويلا مع سارة.

دخلت مدرسة لدراسة تلك اللغة الثانية التي يتكلمها عشرة ملايين نسمة. وكان معي تلاميذ من جنسيات مختلفة، ليس من بينهم تلاميذ من مواطني دولة (ميم) وكانوا كبار السن مثلي. ولهم مشارب مختلفة وأتوا من بلاد متنوعة. لا أعرف ما هو غرضهم من تعلم اللغة. لكن كما يبدو لي أن بعضهم يريد أن يتعلم ليدرس، والبعض الآخر يريد أن يتعلم لتزيد معارفه والبعض الثالث مثلي يريد أن يتعامل مع الناس بفهم. وكان من بين التلاميذ

إناث أيضا. غير أني كنت متباعدا لأني لا أعرف لغة أي منهم. وهم أيضا لا يعرفون لغتي. إلى أن أصبحنا نتعارف بلغة البلد الجديد علينا جميعا.

ولا تزال سارة الراقصة الذرية – كما كنت اسميها – تعلمني اللغة العربية وتتعمق فيها معي. وقليلا من لغتي الجديدة. وترددت في بعض الأحيان على الملهي الذي تعمل فيه. وكنت أتمنى أن أرى الجامعة التي تدرس فيها. كنت أشك كثيرا في أنها طالبة جامعية. إذ كنت استعجب أن جامعية تمتهن الرقص الشرقي. غير أني لم أذهب إلى الجامعة لأني كنت مشغولا بمراجعة الدروس وعمل الواجبات المدرسية.

وفي يوم من الأيام وجدت لديها بنتا من نفس جنسيتنا – كما قالت لي – تشاركها الشقة غير الفسيحة. تدرس هي الأخرى في كلية العلوم في قسم الذرة. كان اسم الفتاة أمينة وهي هادئة كالنسمة لا تتكلم كأنها عصفور لا يغرد. تضع نظارة على عينيها لربما لكثرة اجتهادها في دراسة الطبيعة والكيمياء. تخفي شعرها الناعم وراء غلالة رقيقة تكشف عن شعر أسود فاحم. وعيناها السوداوان الواسعتان تدلان على ذكاء متقد. ولم تكن تتكلم كثيرا معي حينما أزور سارة الراقصة الذرية في شقتها. كانت تتناول كتابا وتخلد للقراءة في الحجرة الصغيرة وأنا أتلقى الدروس على يد الراقصة في اللغة العربية. وتحفظت في معاملتي مع سارة ولم أعد أقوم بتدليكها في وجود أمينة الفتاة الناعمة. كانت سارة تريد أن تظهر أمامها كأنها ملاك بريء لا علاقة به بفتنة الدنيا.

سألت أمينة يوما: هل تعملين؟ ..

أجابت باختصار: لا .. أنا أتعلم فقط.

قلت لها: ولكن زميلتك سارة تعمل؟ ..

قالت باقتضاب كأنها لا تريد أن تخوض في سيرة أحد: لأن ليس لها موارد رزق مثلي.

ولم تكمل كلامها لأنها تريد الإيجاز كما اكتشفت. لذلك اضطررت أن أسألها: هل لك مورد رزق ثابت؟ ..

قالت: نعم .. الدولة تمنحني مرتبا شهريا.

قلت: ولم لا تمنح زميلتك؟! ..

قالت: لأنها جاءت على حسابها.

قلت: ولم لا تحول تعليمها إلى بعثة تمولها الدولة؟ ..

قالت كأنما تصحح مفهوما ألتبس علي: لأن دولتها لا تريد.

قلت: أليس هي من مواطني دولة (قاف)؟ ..

قالت باقتضاب: لا ..

إذن كذبت علي سارة يوم أن قالت لي أنها من مواطني دولتي. ترى لم كذبت؟ .. استغربت إصرارها على التمسح بجنسية بلدي. وهي غريبة عنها. وقد اكتشفت بالفعل أن لهجة أمينة أقرب إلى لهجة بلدي من سارة.

سألتها بفضول: من أي دولة هي؟ ..

قالت: لا أعرف.

سألتها: وكيف جئت معها إلى منزلها؟ ..

قالت: عرضت علي أن نتقاسم أجرة الشقة فنوفر معا في تكاليف الحيلة. إذ أن راتب دولتي لا يكفي.

سألتها: أتدرس حقا معك في نفس القسم؟ ..

قالت: يبدو أنها في قسم الرياضيات وأنا في قسم الطبيعة. لكني أراها كثيرا في الكلية.

سألت: أليست هي طالبة؟ ..

قالت: أعتقد ذلك.

عجيبة. لا تعرف شيئا عنها وتقبل السكن معها، ربما فعلا تخفيض مصرفات السكن تؤدي إلى تخفيض تكاليف المعيشة ومن ثم فإن الفائدة هي التي دفعتها للسكن معها.

بعد أيام طرقت الباب عند تمام الساعة العاشرة والنصف لأحصل على الدرس من سارة الراقصة الذرية، غير أن أحدا لم يفتح الباب، ولا حتى طالبة الدكتوراه.

تركت المكان، وفي الصباح اكتشفت حقيقة غريبة. ألفيت الشرطة، وسكان العمارة يتجمهرون حول شقة سارة. وعلمت من حارس العمارة بعد أن أصبحت أكلمه بلغته أن طالبة الدكتوراه أمينة وجدت مقتولة داخل شقتها. واتضح أن سارة قد تنازلت عن عقد الإيجار لأمينة ويبدو أن المالك وافق على نقل عقد الإيجار فالمهم هو الأجرة .. وأين هي سارة الساكنة الأولى؟ .. لقد غادرت الشقة منذ زمن؟ .. وأين ذهبت؟ .. حارس المبنى لا يعرف لأنها تخلت عن عقد الإيجار منذ زمن ولم تعد تقيم مع أمينة. ولم أقل له إنني رأيتها عندها منذ زمن قريب فكيف غادرت الشقة منذ زمن بعيد؟ .. وحارس المبني لم يشاهدها منذ أن نقلت عقد الإيجار منها إليها. وفي سري كنت أقول: لكني كنت أراها.

ذهبت إلى الملهى لأنتظر خروج الراقصة للرقص غير أنها لم تظهر. قدمت الرقص الشرقي راقصة أخرى. ولما سألت النادل عن سارة قرر أنها تركت الرقص منذ فترة بعيدة. ودخلت في دوامة من الفكر: هل هي التي أقدمت على قتل أمينة طالبة الدكتوراه في العلوم الذرية؟ .. كان علي أن أذهب إلى الجامعة، وأحاول أن وأحاول أن أعرف ماذا كانت تدرس الطالبة، وماذا كانت تدرس الراقصة، وهل مازالت منتظمة في دراساتها العليا بالكلية؟ .. لكنني وجدت أنني أقحم نفسي في أمور قد تعرضني للمساءلة. ربما أتحول بهذا التجسس من سائل إلى قاتل لأمينة طالبة الدكتوراه لأنها تحمل جنسية البلد الذي نفيت منه؟ .. وقد يكون من أوجه دفاعي هو التساؤل: لم أقتلها؟ .. فيقال لي إنها علاقات شخصية. وتذكرت أقوال أمينة بأن سارة ليست من بلدنا. إذن هي من بلاد الأعداء. ربما سلط حكام الدولة التي تنتمي إليها سارة تلك الراقصة الذرية لتقتل أمينةِ حتى لا يكون هناك نبهاء في دولة (قاف) فتتعثر في برامجها النووية .. هذا هو المنطق بالفعل. لذلك استضافتها أولا، وإمعانا في التمويه تنازلت عن عقد الإيجار لها، ثم لم تعد تظهر أمام أحد عند دخولها شقة أمينة، ثم خنقتها، وغادرت البلاد، ويوم أن اكتشفت الجثة، كانت سارة منعمة في بلدها. هل حقا سارة تنتمي إلى الدولة العدو لدولتي؟ .. هل تنتمي إلى دولة (سين) العدو المؤكد لكل الدول الدائرة مع فلك (قاف)؟ .. ربما.

استغربت أنني كلما خطوت خطوة، أجد قتيلا بالقرب مني. وحمدت الله أنني لم أتهم في قضية مقتل طالبة الدكتوراه أمينة. وربما كانت الراقصة تخطط أن أتهم في قتل هذه الطالبة. ربما عرفت أنني أتهمت في بلدي بالقتل فلا بأس أن تلتصق بي التهمة من جديد. وفي هذه الحالة سوف أختفي في

سجون البلد الجديد. هل هي قرأت أخبار ذلك المتهم الذي أتهم بقتل رئيس دولته أم أنها أرسلت إلى بلادها المعادية لبلادي صورتي وبعض صفاتي الشخصية لتستعلم عني، لكن التعليمات جاءتها ألا تنتظر كثيرا تقصي الحقائق عن شخصي الضعيف، وتقضي على الطالبة قبل أن يبزغ نجمها. وأمينة الساذجة الرقيقة انقادت إليها وعاشت معها في بيتها ثم تنازلت لها عن عقد الإيجار ثم عاشت معها سرا ثم قضت عليها. مراحل مختلفة متعاقبة مخططة. ومن أدراك أنها القاتلة؟ .. إن لم تكن القاتلة فمن هو القاتل؟ ..

استمررت اصبغ شعري باللون الأصفر وأحلق ذقني وشاربي، كما صدرت إلي التعليمات. واستمررت أتعلم لأني لم أتلق أي تعليمات تنهاني عن ذلك. واستمرت حكومة بلادي تدفع راتبي كل شهر دون تأخير ولم أسأل عن مصدره. ولم أفكر أن أذهب إلى سفارة بلدي القديم لأسأل عن سر جواز السفر وهل أكون موظفا إداريا بالسفارة دون أن أدري. محسوب عليها أم لا. إمتنعت عن تنفيذ هذه الفكرة حتى أسلم من كل شر. فالأمر واضح ومعروف أنها ذريعة لإدخالي هذا البلد لأني لو دخلت سائحا، لكان علي أن أغادر في ظرف شهرين على الأكثر. ولو دخلت طالب علم، فما هي المدرسة التي سوف تقبل شخصا أميا؟ .. ولذلك فكروا – المسئولون الذين يتولون الحكم في بلدي – أن أدخلها بصفتي موظفا إداريا بالسفارة، وأبقى فيها إلى أن أموت دون أن يسألني أحد لم تغادر البلد؟! .. وإذا فكرت وذهبت إلى السفارة فقد افتح أبواب الجحيم على مصراعيها. وبدلا من أن أتدفأ بجليد البلد الذي أنا فيه، أحترق بنار السفارة.

# ( ٦ )

# شــــقة جـــديـــدة
# شــــقة قـــديمة

صممت أن أتزود بالعلم، واتجه نحو الجامعة، وهناك أتمكن أن أتعـــرف على جنسية سارة الراقصة الجامعية، التي كانت تدعي أنها تنتمي إلى بلدي، ثم اتضح أنها تحمل جنسية دولة أخرى. وهناك أيضا أعرف ما إذا كــــانت بالفعل طالبة بقسم الدكتوراه كما كانت تزعم أم أنها كانت طالبة بــــالصفوف الأولى من البكالوريوس أم كانت لا صلة لها بالجامعة. وأتعرف على طالبــة العلم المقتولة وجنسيتها ورسالة الدكتوراه التي كانت تعدهـــا وموضوعـــها لأشبك بينها وبين الغدر بها. إذ كلما كان الموضوع يتعلق بالذرة والنواة فإن الدولة المعادية قد تصفيها أما لو كانت بعيدة عن ذلك فمــــا صلـــة الدولــة المعادية بها؟ .. لكن كان ذلك حلما بعيد المنال قد يستغرق ســــنوات. وقــد يكون من الصعب كشف الغبار عن هذه الحقيقة المدفونة في أعماق الزمـــن. بل قد أكون وقتها قد نسيت الحكاية ولم تعد تشغل فكري وقد أتعثر في طلب العلم فلا أصل إلى الجامعة. فأنا أدنو من الثلاثين من عمري، وكلمـــا كـــبر الإنسان قلت رغبته في التعلم.

فجأة رن جرس الباب، فأسرعت لأفتح، وقلبي يدق. لم أتردد كأني ألقـــي بنفسي في المصيبة لأوقف أي عذاب ينتابني. رأيت أمامي ذلك الرجل الــذي كان يعطيني تعليمات في السجن في بلدي الأصلي واقفا أمامي يبتسم. ومعـــه

أربعة رجال أشداء. وسألني بلغتي: هل يمكن أن ندخل؟. لما سمحت لـــهم.
قال: أنت تعرف أن الحكومة هي التي استأجرت الشقة التي تقيم فيها؟ ..

قلت: أظن لأني لم أدفع إيجارا في أي وقت مضى. بل ربما أنت ألمحت لي أن لا أدفع طول بقائي. هنا.

نظر إلى شعري وقال: يبدو أنك تتبع التعليمات بدقة فأنت تصبغ شـعرك باللون الأصفر.

قلت: أنا لم أخالفها أبدا.

قال: هناك تعليمات جديدة تصدر إليك.

سخرت قائلا: وهل تصدر التعليمات وأنا خارج البلاد؟ ..

قال: لا تنس أنك تتقاضى مرتبا كبيرا يصرف لك.

قلت: المرتب بالكاد يكفي .. كأنه محسوب بالفلس.

قال: لا تنسى أن هذه الشقة يدفع إيجارها سـنويا دون أن تتحملـه. وأن ذلك الأثاث اشترته حكومة بلدك لك.

قلت ساخرا: وأنت تعرف أنه ثمن ..

قطعت كلامي ولم أنبس فقال: المهم أن التعليمات الجديـدة تقتضـي أن تغادر هذه الشقة لأن أعداء البلد اكتشفوا الحقيقة.

سألت مستغربا: أي حقيقة؟ ..

قال باختصار: إنك لم تعدم وإنك لا زلت على قيد الحياة وإنك تقيم فـي هذا البلد. هكذا نشروا ذلك في جرائدهم. وفي يوم وليلة سوف نجد زرافـات

من الصحفيين يجيئون إليك يستطلعون حقيقة الميت الحي. ويسألونك فبماذا تجيب؟ ..

قلت مندهشا: وكيف عرفوا؟ ..

وقلبت الأمر في ذهني فأدركت بعد أن ألقيت سؤالي أن سارة الراقصة الجامعية قد راجعت جرائد بلدي، وقارنت بين الصورة الوحيدة التي نشرت في الصحف وبين صورتي التي يبدو أنها التقطت لي دون أن ادري، فعرفت من التشابه بين الصورتين أن قاتل الرئيس هو ذلك الشاب الموجود في العمارة التي كانت تسكنها وأعلنت الحقيقة للمسئولين الأعداء في دولتها. وأدركوا فعلا وجه الشبه بيني وبين القاتل المنفي. لذلك سربوا الفضيحة إلى الصحف المحلية.

سمعته يقول: ليس المهم كيف عرفوا .. سوف نعرف فيما بعد. المهم هو أنهم يعرفون الآن. والمهم أيضا أن تنتقل من شقتك هذه إلى شقة أخرى لا يجدونك فيها. ولا تشعر بقلق أو ضغط من أحد ولا تتعرض لتجمهر الصحافيين.

قلت: ومتى انتقل؟ ..

قال: فورا .. هناك شقة أخرى في آخر المدينة استأجرت لك .. ومؤثثة. وسوف ننقل مرتبك على مصرف آخر. وسوف تؤكد لي أنك ستقطع الصلة بينك وبين هذه الشقة وما قد تكون لك علاقة بأحد.

قلت باقتضاب: وهو كذلك. حركوني كما تشاءون فأنت أولياء أمري. ظهرت علامة السخرية في عيني الرجل، وقمت بجمع ما لدي من ثياب داخلية وخارجية وضعتها في حقيبة. استلمها أحد الرجال الأشداء.

وانصرفت دون أن آخذ شيئا من الشقة معي. وقد وعدني الرجل بأن أجد كل شيء مماثلا لما في هذه الشقة في الشقة الجديدة.

هكذا انتقلت من شقة قديمة إلى شقة جديدة لا اختلاف بينهما. الأولى تقع في أول المدينة والثانية تقع في آخرها في عاصمة دولة (ميـــم). وسـلمني مفتاح الشقة ورقم حسابي الجاري الجديد في المصرف الجديد. وانصـــرف هو والرجال الأربعة بعد أن أدوا مهمتهم دون معارضة تذكر. كنـــت وأنـا فقير مواطن ضعيف الإرادة، فهل الإرادة تقوى الآن وأنا مغترب لي إيـراد ثابت؟ .. لا بطبيعة الحال من جبل على الضعف من النادر أن يكسر حلقتـه ويستمر الضعف طالما الإيراد يتدفق إذ أن قطعه يقتل الإرادة ويهزمها، فـلا يمكن أن تقوى.

واستنبطت أن سارة كشفت أمري، وأبلغته إلى أعداء الوطن. لعلها بمـا لها من اتصالات كونتها في الملهى قد تمكنت أن تعرف أن ذلك الموظـف الإداري بسفارة بلدي لا صلة له بهذه السفارة. وليس من المعقول اسـتخدام هذا الموظف وهو أمي؟ .. بل لعلها اكتشفت أنني أبدل معالمي وذلك بصبـغ شعري باللون الأصفر. وقد تكون اكتشفت ذلك حينما تكون الصبغة بلـون فاقع أو بلون غامق. فقد جاورتني زهاء ستة شهور حتى تمكنت من إغـواء طالبة العلم أمينة بالسكن معها في شقتها، وأن تغادرهـا ظاهريـا وتسـتمر تسكن معها من الباطن، ولعلها كانت تتمنى أن أتهم بقتل أمينـة، لـولا أن صدرت إليها التعليمات بالإجهاز على الفتاة، وتركي حتى يمكـن لأجـهزة حكومتها أن تفضح حكومتي في مسألة حياتي في المنفى بعد إعلان إعدامي. ويبدو أن تلك الحكومة أعلنت عن مكاني وجاء الصحافيون ولم يجدوا ذلـك الميت الحي في نفس الشقة التي أعلنت عنها حكومة الأعداء. ولعل الحارس

قال لهم إن هناك شابا كان يسكن الشقة لكنه غادرها. وليس له صفات ذلك المجرم الذي قتل رئيس دولة (قاف) السابق. ولعله قال لهم إن صورة المجرم تدل على أن شعره أسود والساكن السابق كان شعره أصفر. والمجرم كان ساعيا والساكن السابق يعمل في السفارة. فكيف يكون المجرم هو الساكن السابق؟ .. ولا اعرف ما إذا كان أحد الصحافيين قد تجرأ وقصد السفارة وطلب منهم معلومات عن ذلك الساكن الموظف الإداري بالسفارة؟ ..

بحثت بعد ذلك عن مدرسة لتعليم الأجانب لغة البلاد، فوجدتها تقع في حي قريب من أحياء آخر المدينة يسبقني بمحطة مترو. ذلك المترو الذي يخترق العاصمة من أولها إلى آخرها. ولم يكن لذلك أهمية خاصة بعد أن اطمأننت أن المصرف صرف لي راتبي كاملا. وطلبت تحويل ما في حسابي الجاري السابق إلى حسابي الجاري الجديد. وقطعت صلتي بأول المدينة. ولم أفكر لحظة أن أتردد على الشقة القديمة ولا المدرسة القديمة. قطعت كل صلة لي بالماضي القريب مثلما قطعت من قبل كل صلة لي بالماضي البعيد. يبدو أنني موعود بقطع الصلات بيني وبين الأشياء والآخرين الذين أعرفهم. وهكذا عدت لأعيش وحيدا مثلما بدأت. ولكن الأوامر لم تصدر لي أن أبقى وحيدا، والأمر الواضح والصريح هو ألا أتكلم عن الماضي. ممنوع الكلام عنه. ومازال الأمر ساري المفعول.

أتقنت اللغة الجديدة، وتعرفت في المدرسة الجديدة على فتاة من بلد عربي، طلبت منها أن تستمر في تعليمي اللغة العربية قراءة وكتابة. واكتشفت نجلاء أنني قطعت شوطا كبيرا فيها، لكن لم أذكر لها أنني تعلمتها على يدي راقصة جامعية. إنما قلت لها إنني تعلمتها في بلدي.

قالت لي: ماذا تعمل هنا؟ ..

قلت باقتضاب: أنا اعمل في سفارة بلدي.

استغربت وقالت: كيف تعمل وأنت تكاد تقرأ وتكتب؟ ..

قلت: لست أميا بدرجة كبيرة. ثم أنا لي واسطة في بلدي، فأنا قريب لرئيس الوزراء. وأبعدت عن البلد لأسباب اقتصادية. فهو يريد أن يعطيني مالا لأرفع من مستواي الاقتصادي فلم يجد خيرا من أن يلحقني بالسفارة دون أن يسند إلي أي عمل، بل إنني لا أذهب في بعض الأحيان للعمل لأنه ليس لي عمل.

كذبت عليها وصدقت الكذب. ثم بدأت تعلمني في شقتي الجديدة. سألتها مرة: ماذا تعملين هنا؟ ..

قالت: أنا لاجئة سياسية.

سألتها: وهل النساء في بلدك يشتغلن بالسياسة؟ ..

قالت: أنا من عائلة تشتغل بالسياسة سواء ذكور أم إناث. وقد اضطهد أفراد العائلة ففررنا خارج البلد.

جاءت يوما لتعطيني درسا. كانت متحفظة فتحفظت معها حتى لا أخسرها. فقد كانت رفقتها مبهجة تبعث السعادة في فؤادي المكلوم. ولا يمكن أن أقدم على فعل أشياء لا توافق عليها. سألتها: هل يمكن أن نتزوج؟ .. قالت: أنا لا أهوى الجنس، لذلك سوف أتعبك معي. قلت: كيف؟ .. قالت: أنا باردة جدا ولا اعرف السبب. قلت: غريبة. مع أن من يراك يظن أنك مثيرة للفتنة. والجنس. قالت: ذلك اختلاف الظاهر عن الباطن. فأنا ظاهري بركان مشتعل وباطني بركان خامد. وأنت ظاهرك العكس. قلت: أنا أتحفظ معك

فأبدو كتلة من الجليد ولكن حينما توافقين سأكون شعلة متقدة. ثم استطردت قائلا: غريبة أنني أصادف في حياتي من هن أبعد عن الجنس. وأنا قريب منه. قالت بفصاحة: هذا حظ. سألتها: هل تدفع لك الحكومة الوطنية هنا راتبا شهريا. قالت: نعم. قلت: لأنك لاجئة سياسية؟ .. قالت: نعم. سألتها: ربما إذا تزوجت فقدت ذلك الراتب. قالت: الحمد لله أن جسدي لا يشتعل، وإلا كنت قد ضحيت بذلك الراتب. ثم سألتني: هل تذهب في الصباح إلى العمل؟ .. قلت: لا .. قالت: غريبة وما السبب؟ .. قلت لها: ألم أقل لك إنني قريب رئيس الوزراء في بلدنا! ..

قالت: إذن سوف أعطيك دروس اللغة العربية في الصباح بدلا من المساء خاصة إذا لم تكن هناك حصص لنا في المدرسة، لأني اجتمع مع الرفاق ليلا، نتداول الأمور الخاصة ببلدنا. قلت متسائلا: أليس محرما عليك الاشتغال بالسياسة. قالت: أنا لا اشتغل، ولكن فقط أناقش. قلت: هذا غريب. رغم أن الحياة رغدة بالنسبة لك غير أنك تلقين بنفسك في التهلكة.

وفي يوم آخر جاءت نجلاء بجريدة أجنبية مكتوبة باللغة الإنجليزية، وقرأت مترجمة علي خبرا امضني. قالت: عن قاتل رئيس دولتك يعيش هنا في هذا البلد باسم مستعار وقد غيرت الحكومة شكله. هكذا أذاعت وكالة أنباء دولة (سين) العدو للعرب. غير أن الصحفيين ذهبوا إلى الشقة التي أعلنت الوكالة عنوانها فلم يجدوا شيئا. ورفض حارس المبني أن يتفوه بكلمة. وانصرف الصحافيون ساخطين. وقرروا أن الخبر محض افتراء من دولة معادية ضد دولة مسالمة. سألتني: هل تظن أنه محض تجن أم أن الحكومة بدولة (قاف) هي التي نقلت ذلك القاتل من مكان إلى آخر؟ ..

سألتها: كيف يكون قاتلا ويطلق سراحه. قالت: ربما مظلوم لكن تم لصـــق التهمة به لذلك تم نفيه خارج البلاد.

قلت، وأنا أتوارى في الكرسي: ربما.

( ٧ )

# هاجس ثائر
# هاجس مدمر

اتخذت قرارا أن أغادر هذا البلد الجديد، رغم أني كنت سأخسر راتبي، ذلك الذي قررته حكومة بلدي ثوابا لي مقابلا لسكوتي. غير أني اعتبرته راتبا ملوثا بالغش والنفاق وخداع الناس، وأنه ليس من حقي أن أتقاضاه. وفكرت طويلا كيف أسافر إلى بلد آخر. وكان علي أن أتعلم مهنة أستطيع أن أتقنها، فإذا ما دخلت البلد الجديد أو الأكثر جدة أن أتمكن من البقاء فيه دون أن أتعرض إلى الترحيل. وجدت أن الأمر معضلة كبيرة. إذ كان علي أن أتعلم لغة البلد الأكثر جدة، وفي نفس الوقت أتعلم حرفة. وأنا لا اعرف أي حرفة يمكن أن أتقنها. وهناك في البلد الأكثر جدة أعمل وابحث عن عمل وعن امرأة أتزوجها. قد تكسبني جنسية البلد الذي سوف أتوجه إليه للسياحة خاصة بعد أن زال ما علي من غبار الزمن وأسفر عن وجه نضر وجسد متين مرموق، صار منتصبا بفعل الغذاء والمال والعادات الجديدة.

لما تبلورت الفكرة في رأسي، قصدت مدرسة الفصل في اللغة الجديدة، وسألتها: أريد أن أتعلم مهنة أتعيش منها؟ .. قالت متسائلة وكأنها تعرف كل شيء عني: ألست تعمل في سفارة بلدك؟ .. اضطربت، ثم قلت: نعم .. أعمل. لكن غير راض عن العمل. أريد عملا استفيد به في المستقبل حينما أحال إلى التقاعد. سألت: أتريد عملا يدويا أم حرفيا أم ذهنيا. وسألت: وهل هناك عمل ذهني مريح؟ .. أجابت: نعم .. تتعلم إدخال البيانات والمعلومات

في الحاسب الآلي. هذه الوظيفة مطلوبة الآن في جميع أنحـــاء العـــالم ولا تحتاج إلى شهادات إلا معرفة الرياضيات أو في بعض الأحيان الكتابة علـــى الآلة الكاتبة. قلت: إذن علي بها. قالت: إذن انتظرني بعد مواعيـــد الـــدرس لآخذك إلى معهد لتعليم الحاسب الآلي.

غارت نجلاء من مدرستي إيفيلينا، خاصة حينما استغرق الحديث وقتـــا طويلا، وسألتني: ماذا كنت تقول لها؟ .. قلت: هذا ليس من شأنك. لا تريـــد أن تتزوجيني. وفي نفس الوقت تريدين أن تتملكيني. ما هذا التناقض؟ .. ثـــم قلت لها مخففا وقع معارضتي لها فهي تعلمني اللغة العربية وبدونـــها لـــن أتمكن أن أخطو خطوة فيها. إنني أسألها أن تدلني على وظيفة أتعلمها استفيد منها في المستقبل. سألت بإلحاح: وماذا قالت لك؟ .. قلـــت: ســـوف أتعلـــم إدخال البيانات في الحاسب الآلي.

قالت: فكرة .. لنتعلم معا.

قلت لها: وهل تريدين أن تأتي معي؟ ..

قالت: وما المانع؟ ..

ثم راجعت نفسها وعادت تقول: أذهب أنت أولا وأعرف شروط الالتحاق ثم دلني بعد ذلك على المعهد والشروط؟ ..

انتهت إيفلينا مدرسة الفصل من عملها. هي طويلـــة القامـــة، هضيمـــة الجرم. تبدو لا أنوثة فيها بعكس المرأة اللاجئة نجلاء. فهل تكون متفجـــرة الأنوثة من الداخل بعكس اللاجئة الباردة كالثلج؟ ..

أخذتني إيفلينا إلى المعهد. سجلت فيه اسمي ودفعت المصروفات على أن أبدأ الدراسة بعد أسبوع. وطلبت مني أن أكثف دراستي في لغة بلدها (ميم)،

حتى أتمكن من مواصلة التعليم على الحاسب الآلي وأنا أفهم ما أتعلمه، لذلك دعتني إلى شقتها حتى تكثف من تعليمي. وهناك التقيت بزميلة لها في شقتها تسكن معها اسمها أوليفيا. تعمل في سجلات الطلاب بالجامعة. انتشيت لذلك إذ أستطيع بمرور الوقت أن أكون صداقة مع تلك البدينة أوليفيا واطلب منها أن توافيني بمعلومات عن قاتلة الطالبة – في رأي – والطالبة المقتولة أيضا. ولا أدري كيف تملكني الفضول ومعرفة الحقائق ولم أكن بهذه الدرجة في الماضي إذ كنت لا أهتم بشيء. غير أني تراجعت لأن ذلك لا يجوز من أول لقاء فقد تربط أوليفيا بين قتل الطالبة وبيني. واسقط في دائرة جريمة لا صلة لي بها. وإذا ما أبلغت الشرطة وتدخلت فقد يتكشف وجودي المزور في هذا البلد. واستأذنت أوليفيا لأنها على موعد مع صديقة. وخرجت ترتدي معطفا جعلها أكثر سمنة مما يجب. كانت بدينة بعكس المدرسة الرفيعة. واستغربت أن أصادف في حياتي نساء لا يهواهم القلب وإذا هواهم لا يكون لهن ميل إلي.

أدركت من البداية أن مدرستي ايفلينا تتحرق شوقا إلي، لكنني كنت لا أراها فاتنة فلم تكن تستلفت نظري لذلك لم ألتفت إلى تلميحاتها. وإن كنت أوسوس لنفسي إنها امرأة وأنني من الممكن أن أنالها وهي متطلعة إلى ذلك، وبذلك أستطيع أن أرضي نفسي لدرجة ما؛ وتذكرت أنها كانت تركز النظر إلي في الفصل وأنها ترعاني بتصحيح أوراقي بسرعة حتى تستلفت نظري إلى أخطائي فأصححها في الحال.

لما جلست لتعلمني اللغة جلست تعلمني إياها من كتاب. كنت أقرؤه فتصحح لي النطق. ثم أكتب ما قرأته غيبا. ثم تمليني إياه. وكانت قد قامت وارتدت ثياب المنزل الشفافة فظهر جسدها كأنه عظام ركبت على عجل.

بارزة الصدر. ناتئة المعصمين. ماذا أفعل بهذه العظام. وتـأملت وجهـها. كانت عيناها زرقاوين. وحاجباها رفيعين. وشفتاها مكتنزتين. ووجها أبيض. قلت لنفسي: لأتأمل الوجه وأركز علي. وأغض الطرف عن الجسد الهزيل.

لما كتبت الصفحة التي أملتني إياها، وصححتها، طبعت قبلة على خدي، وقالت إيفلينا: عظيم.

علمتني إيفلينا الحب بهدوء ودون تعجل. واسـتغربت أن تكـون هـذه الهزيلة بهذه الدرجة من المهارة. وفكرت بعد ذلك أن أطبق ما تعلمته مـن إيفلينا من دروس الحب على نجلاء اللاجئة السياسية التي أحببتها، لكن لـم تبادلني الحب. وانتظرتها أن تأتي، فلم تأت. يبدو أن الغيرة اسـتبدت بـها، فوأدت على الفور علاقتها بي. ولكن ما ذنبي أنا وقد طلبت منها أن أتزوجها فرفضت لأنها – كما تدعي – باردة لن تنفعني. إذن لم تغـار إذا حـاولت التقرب من أخرى؟ .. أم أنها تريد مني أن أحبها ولا ألمسها! ..

ولما التقيت بنجلاء في الشارع في عصر أحد الأيام، وأنا عائد لشـراء حاجياتي. سألتها: من إذن سوف يعلمني اللغة العربية؟ .. قالت: أنـت الآن أجدتها فعلم نفسك بنفسك. سألتها: هل أنت غاضبة لأني اتصلت بالمدرسـة؟ .. قالت مستهزئة: ولم أغضب؟ .. قلت لها: أنا طلبت منك الزواج فـامتنعت عن القبول فماذا أفعل؟ .. والمدرسة طلبت منها أن تبحث لي عن معهد أتعلم فيه مهنة، فأخذتني إلى مركز تدريب فهل لا أذهب معها؟ .. قـالت: علـى العموم لنواصل التعليم. سوف آتي إليك صباح غد.

حينئذ بدأت أطبق على نجلاء ما تعلمته من فنون الغرام من إيفلينا. قبلت في البداية قبلاتي، ثم استمرأتها، وكأنها كانت تتهم نفسها بأنها دخلت ديـرا

من الأديرة رغما عن إرادتها. رغم أنها لا تميل إلى الرهبنة. ولما حـــاولت أن أتعمق في العلاقة رفضت بإباء. قالت: أنا أعول نفسي بالكاد فكيف أعول آخر معي؟ .. قلت غير فاهم: أنا أعول نفسي ولم اطلب منك إعالتي. قالت: أنت لا تفهم. يمكن أن أحبل. وانجب ولدا وإذا تزوجتك أوقفت الدولة راتــب اللاجئ السياسي. وأنا لا أضمن إذا كنت ستبقى في هذا البلـــد أم ســتمضي بعيدا عنه. قلت: لقد فهمت أنني لن أغادر هذه البلدة أبدا. قالت: ومن يضمن لي؟ ..

فهمت حجتها، واكتفيت بعلاقتي بإيفلينا. وقابلت في شقتها عـــدة مـــرات زميلتها البدينة أوليفيا. وسألتها بعد أن توقفت علاقاتنا أن تسأل عـــن امـــرأة اسمها سارة يعقوب عرفتها من قبل، قالت لي إنها طالبـــة بالجامعـــة بقســـم العلوم، فهل لا زالت في البلاد أم غادرتها. وهل لا زالت تدرس في قســـم الذرة في قسم العلوم أو أنها لم تكن طالبة بها في يوم من الأيام ولم تـــدرس العلوم النووية. وهل غادرت البلاد فترة ثم عادت. وفهمت منها أنها رحلـــت إلى بلادها (سين) وعادت من جديد. أدركت أنها قتلت بنت بلدي أمينة طالبة العلوم الذرية ورحلت عن البلاد حتى لا تثير الشكوك ثم عادت وكأنها لـــم ترتكب أي فعل لتواصل تعليمها. وقررت أن أقلل خطواتي في المدينة حتـــى لا ألتقي بها إذ من الممكن أن تكون قد عادت لتبحث عنـــي حتـــى تكشـــف مكاني، وتفضح بلدي وتشير إلى الصحافـــة بوجـــودي. وهكـــذا أتعـــرض للفضيحة ويتعرض بلدي أيضا. يعرف الجميع قاتل رئيس الدولة في البلـــد (قاف) الذي اتهمته بلاده بالقتل ثم حاكمته وبعد ذلك أفرجت عنه سرا ونفتـــه إلى خارج البلاد مدعية أنها أعدمته. كيف أوصل هذه المعلومة لبلدي وهـــي

أن سارة كشفت أمري، وأنها قتلت أمينة في بلد (ميم) تلك التي كانت تدرس العلوم النووية وغادرت البلاد وعادت لتكشف أمري؟ ..

فكرت أن أرسل هذه المعلومة للمسئولين في بلدي، غير أني أنكرت على نفسي ذلك. من الممكن أن يسقط الخطاب في أيدي أعداء الحكـــام، ويفشـــي السر. وتأتي فرقة لقتلي والانتهاء مني على الفور لأني أفشيت سرا رهيبـــا لذلك استحق القتل.

فكرت أن أقابل سفير بلدي، لكن من الممكن أن يكـــون الســـفير غـــير متعاون مع المسئولين الجدد في بلدي. فيفضح أمرهم. ويعلـــن أن هـــؤلاء المسئولين قتلوا رئيس الدولة السابق واستولوا على الحكم قسرا وانهم اتهموا رجلا بذلك مع أنه برئ. ويعيش الآن في الخـــارج علـــى حســـاب أمـــوال الشعب.

وهكذا عشت في دوامتين. دوامة إبلاغ المسئولين ودوامة السكوت. ولكن كيف يمكن السكوت وعلي أن أثأر لطالبة العلم بنت بلدي التـــي راح دمـــها هدرا خشية تقدم بلدي. وبين ذلك الهاجس المدمر: وأنت مـــالك؟ .. عـــش حياتك ولو متخفيا. وذلك الهاجس الثائر: اقتص للطالبة المســـكينة. تقلبـــت كأني أتقلب على جمر من النار.

( ٨ )

# نفي سريع
# بقاء شائك

سألت في المصرف عن إمكانية أن أتلقى الأموال التي تؤول إلى حسابي الجاري من دولة (قاف) إلى بلد أوربي أنوي الإقامة فيه. غير أن المصرفي أجاب بأن ذلك لم يكن ممكنا في الزمن القديم، حيث كان الحكم الشيوعي يحول دون تحويل الأموال، أما الآن فإن ذلك ممكن. غير أن العقبة الوحيدة هو أن عملة البلد لا تستعمل أو تصلح لتداولها في الخارج. ولا يمكن أن تحول عملة البلد إلى عملة صعبة ثم تسافر إلى صاحبها في الخارج. حينئذ بدرت لي فكرة أن من الممكن أن أسافر إلى الخارج، وأقيم هناك وأعمل وآتي من حين لآخر لاستلام المبالغ المتراكمة، وأحاول أن أغيرها من الأجانب الوافدين إلى البلد بعملات أجنبية صالحة للتداول كالدولار مثلا، ثم أعود من جديد لأعمل في الخارج وبذلك أتفادي مطاردات سارة يعقوب لو كانت قد عادت لتطاردني. أنا أعرف أن بلاد أوربا الغربية لا تعاني من البطالة، والعجز في الموظفين على أشده في وظائف الحاسب الآلي. وعلي إذن أن أجيد لغة العصر وأهرع بعد ذلك إلى الخارج. لذلك استمررت أدرس الحاسب الآلي والكتابة على آلته الكاتبة وإدخال البيانات.

واستمررت أدرس اللغة الجديدة لدي المدرسة إيفلينا. ولم أتوقف عن تلقى اللغة العربية على يد اللاجئة السياسية نجلاء. بالإضافة إلى دراسة

الحاسب الآلي. وأنا أبيت النية على مغادرة البلاد والعودة إليها من شهر إلى آخر.

ذات يوم دخلت أوليفيا الموظفة البدينة بسجلات الجامعة والمقيمة مع إلفينا المدرسة ومعها الراقصة طالبة الدكتوراه في الذرة. صافحتني بحوارة وسط دهشة إلفينا وأوليفيا. وأدركا أنها صديقة لي منذ زمن بعيد. ولم أشعر أن إلفينا تغار منها. وسألتها: أين اختفيت فجأة؟ .. قالت: لقد عدت إلى بلدي – تقصد أن توحي إلى أنها بلدنا – لفترة وجيزة أبحث فيها عن مصير والدي. وما تركاه من ثروة. ولما عرفت أنهما قتلا في حادث مرور وتمكنت من السيطرة على إرثي عدت لأستكمل الدكتوراه. ثم قالت مدعية السذاجة: سمعت أن بنت بلدنا أمينة زميلتي قتلت. ولم يعرف القاتل. هل عرف القاتل؟ ..

وكان الحديث يدور بيننا باللغة العربية الدراجة. بينما الموظفة جالسة قلقة تكاد تقول بعينيها: غادرا المكان. وهمست لإلفينا أن نغادر.

ثم استأذنت إلفينا وطلبت مني أن أمضي معها. وسألتني سارة الراقصة طالبة العلوم الذرية: كيف سأراك؟ .. قلت أتهرب منها: أنا مشغول هذه الأيام .. حينما أفرغ من أعمالي الكثيرة سوف نلتقي، أنا آتي هنا يوميا فلا بأس أن نلتقي هنا.

ولمل سألت إلفينا عن أسباب مغادرتها شقتها في مثل هذه الساعة. قالت: هكذا تريد أوليفيا. سألت بسذاجة: ولم تريد؟ .. قالت: إنها سوف تستمتع بالطالبة.

لم أفهم إلا فيما بعد ما تعنيه بالاستمتاع.

وبسذاجة واصلت الذهاب إلى المدرسة، ولم أر الراقصة بعد ذلك. ولكنني لم أنس ما كونته من وجهة نظر أن سارة قتلت بنت بلدي أمينـــة، وأنـــها لا تزال تزعم أنها من بلدي، ولو أن الموظفة البدينة أكدت لي أنها مـــن بلـــد آخر، يعد من أعداء دولتي، وهي بلدة (سين). لذلك وقد أخذنـــي الحمـــاس بدأت أكتب باللغة الجديدة خطابا إلى النائب العام في البلد الجديد (ميم) . أبثه شكوكي في أن قاتلة طالبة العلوم الذرية من بلدة (ســـين) ســـارة يعقـــوب الراقصة والطالبة في قسم الدكتوراه بالجامعة قد قتلت مع ســـبق الإصـــرار والترصد أمينة زميلتها الطالبة بنفس القسم. وقد قتلتها بسبب أن بلدها عـــدو لبلدها. ولا يريد بلدها أن يكون لذلك البلد طالبة في العلوم النووية حتـــى لا تعلو في مجال الذرة، ويمكن أن تقذف بسكانها إلى البحر أو تبيدهـــم إبـــادة تامة، لذلك فهي تصفي الكوادر المختلفة التي تصعد في هذا المجال في بلـــد (قاف) والبلاد المجاورة لها.

وألقيت الخطاب في صندوق البريد بعد لصق طابع البريد عليه ومحـــورا باسم النائب العام لدولة (ميم). ثم عدت مطمئنا إلى شقتي. غـــير أن أربعـــة رجال أشداء هاجموني، وأوثقوني في الشارع الخالي من المشاة، إذ أن آخـــو العاصمة مكان هادئ خال من السابلة، وألقوا بي في سيارة. اندفعـــت إلـــى مكان غير معلوم لي، وقد تم تكميم فمي حتى لا أصرخ، وتم حجب الرؤيـــة عن عيني حتى لا أبصر، ووثقت قدمي حتى لا أقفز من السيارة.

ووجدتهم يلقون بي على مقعد مريح، ويد ناعمة أعرفها تنزع الحجـــاب عن عيني، وترفع الكمامة عن فمي. شعرت بهذه اليد من قبل، وأدركت أنها سارة اختطفتني، لقد سقطت أخيرا في شباكها. وفعلا أماطت اللثام وتفتحـــت

عيناي ورأيت سارة يعقوب أمامي تبتسم. وتخلع عني كمامة الفم. وأنا أسألها: لم فعلت ذلك؟ .. أجابت: أحبك .. وأريدك بجانبي.

قلت: وهل من يريد شخصا بجانبه يوثقه ويكمم فمه؟ ..

قالت: لو قلت لك تعال لما جئت.

قلت غاضبا: وهل آتي لقاتلة؟ ..

قالت مستغربة: قاتلة؟! ..

قلت: نعم .. قتلت أمينة زميلتك في الجامعة بنت بلدي.

سألت: كيف أقتل بنت بلدي؟ ..

قلت: أنت تكذبين. إن جنسيتك هي جنسية بلدة (سين) أعداء بلدي. لقد قتلتها حتى لا يكون هناك كوادر واعدة لبلدي. وتنتهي بها النهضة العلمية.

قالت: أنا لست قاتلة .. أنت القاتل .. قتلت رئيس دولتك. وقام المتآمرون بترحيلك خارج بلدك .. وزعموا أنهم أعدموك.

قلت: هذا غير صحيح.

قالت فاضحة خطتها: أنا أعد الإجراءات الآن لنقلك في صندوق مكيف إلى بلادي، ولا تخف فسوف تكون مخدرا. وهناك سوف تكشف أما الرأي العام العالمي خسة المسئولين في دولتك. وتعلن للعالم أجمع بعد أن يتحول شعرك الأصفر إلى شعر أسود ويعود شاربك ولحيتك إلى وجهك أنك قاتل رئيس دولتك وأن الخونة هربوك إلى الخارج.

قلت محتجا غاضبا: هذا كذب .. هذا هراء ..

قالت: دعني استمتع بك قبل أن نعود إلى دولتي يا فتي وافتقدك هناك ..

حاولت معي، غير أني كنت ابتعد عنها، وهي تقترب مني، وتلثمني عنوة كأنها تغيظني، وتقول: رغم أني أحببتك لكن لا أستطيع أن أطلق سراحك. هكذا صدرت إلى أوامر مخابرات بلدي بالقبض عليك. كنت في الأيام الماضية أبحث عنك ولا أجدك حتى وجدتك صدفة. لا أستطيع يا فتاي العزيز أن أطلق سراحك لأنها أوامر بلدي.

غضبت واغتظت لكن ماذا ينفع الغضب والغيظ. بعد قليل سوف أحقن بمخدر، وأوضع في صندوق، وتطير الطائرة إلى بلد الأعداء، وهناك يكشفون أنني قاتل رئيس الدولة – رغم أني برئ – وأن حكومتي هربتني إلى خارج البلاد وألصقت بي التهمة وادعت أنها أعدمتني. أي فضيحة سوف تقابل حكام بلدي! .. ولا أعرف ما سيكون مصيري بعد ذلك وماذا سيفعلون بي إذا رفضت أن أطاوعهم ولا أعترف بما يطلبون مني؟ ..

رن الجرس في الصباح، وفتحت الراقصة طالبة العلوم النووية الباب، فوجدت أمامها جيش من رجال الشرطة. وصلهم خطابي، فتحركوا مسرعين، سألوا الجامعة عن عنوان الفتاة سارة يعقوب فدلتهم على عنوانها الذي لم أكن أعرفه ودخل ضابط عظيم الشقة، وهو يدفعها إلى الداخل، فوجدني موثقا ومكمما حتى لا أصرخ، فنزع عني الكمامة ولا زلت موثقا وسألني: من فعل بك ذلك؟ ... قلت: هذه وآخرون. اختطفوني حتى يزيلوا الدليل على إدانتهم بقتل الطالبة أمينة. وفك وثاقي وسارة متجمدة في مكانها وقد سقطت في أيدي الشرطة.

انتظرت الشرطة قليلا أن يصل الرجال الأربعة غير أن أحدا لم يأت. ولم يصبر الضابط العظيم فتركوا شرطة سرية للمراقبة، واقتادوها إلى قسم الشرطة، وأخذوني معهم للتحقيق. ورويت لهم الشكوك كاملة. علاقتي

السابقة بالطالبة الراقصة. ثم استضافتها لأمينة زميلتها بالجامعة في دراسة العلوم النووية. وكذبها أنها مواطنة من مواطنات بلدي. وما قالته لي أمينة أنها بنت بلدي ولا تعرف جنسية سارة ثم اتضح أنها تحمل جنسية معادية لبلدي. واختفاؤها بعد أن تم القتل. بل تنازلها عن عقد إيجار الشقة لأمينة طالبة العلوم الذرية بنت بلدي قبل القتل، مما يجعل الصلة بينهما منقطعة. ورغم ذلك لم تغادر الشقة واستمرت تقيم معها متخفية لأن حارس المبني لم يكن يعرف أنها تسكن مع أمينة ويظن أن سارة غادرت الشقة لانتقال عقد الإيجار إلى أخرى.

وضيقت الشرطة الخناق على الفتاة ولكنها لم تعترف. أنكرت بشدة أن ترتكب ذلك الجرم، ولعلها كانت تدرك أن لا شهود هناك على واقعة القتل وأن رأي مجرد تخمين لا يرقى إلى درجة الدليل. وتم القبض على الرجال الأربعة الذين اختطفوني وهم يحملون صندوقا ليواروا فيه بدني حيا. وعرفت الشرطة المؤامرة كاملة. وكان من المفروض أن أحمل إلى بلد الأعداء سرا، وهناك يفضحون حكام بلدي. وجاء قنصل سفارة بلدي بناء على طلب الشرطة خاصة أن جواز السفر لدبلوماسي إداري في السفارة. واستغرب أن يكون لدي السفارة موظف إداري لا يعمل بها ولم يره يوما. وأن يحول له راتب شهري على المصرف دون علم السفارة.

وحتى تتفادى الشرطة أي تصادم بين البلد الجديد (ميم) والبلد القديم (قاف)، أمرتني أن أحزم حقائبي وان أغادر البلاد على الفور خلال أربع وعشرين ساعة. وطلب القنصل أن تنتظر الشرطة حتى يتحقق من الأمر، ربما أكون قد زورت جواز السفر، ووصلت إلى البلاد خلسة، فسأله

المحقق: كيف يكون ذلك وفي أول كل شهر يرسل له راتب على المصرف الوطني؟ ..

بقيت أسبوعا على ذمة التحقيق .. ولا أعرف كيف سولت لهم أنفسهم من تحويلي من مجني عليه إلى متهم. وكيف يحبسون بريئا. وكنت انتظر الطرد أو الإبقاء. ويبدو أن النفي السريع كان هو القرار بدلا من الإبقاء الشائك والمؤدي إلى تصادم بين البلدين.

## ( ٩ )

# أوربـــا الشـــرقيـــة
# أوربـــا الغربيـــة

أمهلتني السلطات أربع وعشرين ساعة حتى أغادر البلاد، بعد أن تبرأت مني سفارة بلدي، ولذلك زرت الزيارة الأخيرة لإيفلينا أشـــكو لـــها حـــالي، وأسألها: كيف تعرفت زميلتك في السكن على طالبة العلوم؟ ..

قالت: إنها تقتنص الفتيات الجميلات لتمارس الحب معهن. وجاءت إليـــها تلك الفتاة لتدفع مصاريف الكلية فقد كانت قـــد غـــادرت البـــلاد وعـــادت وتراكمت عليها المصاريف الدراسية. ولما تذكرت أنك كنت ســـألتها عنـــها ووجدتها مليحة فأرادت أن تتذوقها مثلما أنت ذقتها ...

قاطعتها قائلا: أنا لم أذقها.

واصلت الكلام: ما علينا. جاءت بها ظانة أنك قد انصرفـــت. وأننـــي إذ أراها مع أخرى أنصرف. غير أن ما حدث هو أنك كنت موجودا. وأنا لـــم انصرف، لذلك تواعدت معها على يوم آخر.

قلت لها: لكننا انصرفنا وقتها. ثم أردفت: لقد اتضح أن هذه الفتاة مجرمة طالبة حقا تدرس العلوم النووية، ولكنها قتلت طالبة معها من بلـــدي، ولمـــا كنت أستطيع أن أدل الشرطة عليها لأنها هربت بعد أن قتلتها، قامت بخطفي مع أعوان لها، حتى أمتنع عن كشف سرها. ولكني كنت قد أبلغت الشـــرطة بجريمتها بخطاب سريع، فلما داهمت الشرطة مقر الجامعة للقبـــض عليـــها والتحقيق معها لم تجدها، وعرفت الشرطة عنوانها من الكلية، وتوجهت إلـــى

منزلها، وفوجئت الشرطة بخطفي، وأنقذتني من الخطف وربما القتل، غير أن المسئولين بالشرطة أبلغوني أنني شخص غير مرغوب فيه لأن سفارة بلدي تنكرت لي، وأمهلوني مهلة قدرها أربع وعشرين ساعة لأغادر البلاد.

سألت: وأين ستذهب؟ ..

قلت: لا أعرف .. لا يمكنني أن أعود إلى بلادي لأن هذه البلاد نفتني في ظروف معينة. ولا يمكن أن تسمح لي بالعودة. سأتشرد في أوربا الغربية. ربما أجد مكانا أعيش فيه ورزقا أعيش منه هناك.

قالت: لي خالة هربت من الحكم الشيوعي واستوطنت دولة (نون) وهي إحدى دول أوربا الغربية فما رأيك لو ذهبت إليها؟ ..

قلت: اكتبي لي عنوانها أرجوك.

وكتبت العنوان. وحصلت من سفارة دولة (نون) على تأشيرة دخول للسياحة.

وفي الصباح كنت قد صرفت كل ما في حسابي الجاري من نقود، وتمكنت في أحد الفنادق من تحويل العملة المحلية إلى عملة أجنبية عالمية. وغادرت بلاد (ميم) في أوربا المسماة بالشرقية إلى أوربا الغربية بقطار الشرق السريع.

وهناك في بلد الحكم الرأسمالي، التقيت بالسيدة قريبة المدرسة إيفلينا، واسمها سوزيتا، وتفاهمت معها بلغة بلد (ميم) التي تتقنها لأنها بلدها الأصلي. وحكيت لها حكايتي. إنني نفيت من بلدي. ودخلت أوربا الشرقية على أساس أنني موظف في السفارة، ولما أبلغت السلطات عن مقتل طالبة من بلدي بيد طالبة من بلد (س) المعادية لبلدي، رفضت سفارة بلدي

الاعتراف بي لأنها لا تعرف شيئاً عني، ووجدت الشرطة تخبرني أن من الأسلم أن أغادر دولة (ميم) فوراً لأني مقيم إقامة غير شرعية، أو إقامة لا تعترف بها سفارة بلدي ولا أستطيع أن أعود إلى بلدي لأنهم قد يقتلوني لأن سرهم افتضح وقد يقتلوني بدلاً من إعادة إيوائي.

أشفقت سوزيتا عليّ، فقد كانت ظروفي قريبة من ظروفها، إذ هربت من الحكم الشيوعي في بلدها، وقامت بدراسة الحاسب الآلي في بلد (نون)، ثم دخلت في مجال تجارة أجهزة الحاسب الآلي، ونجحت، وتوسعت في تجارتها حتى أصبحت تمد معظم الدول الأوربية بهذه الأجهزة. وكانت تعيش في شقة واسعة ورأيت حولها قليلاً من الخدم. وسألتني: أين ستبيت؟ ..

قلت: لا أعرف. إن ما معي من نقود لا تكفي للإقامة في فندق أسبوعاً واحداً.

قالت بحزم: سوف تبيت عندي. ثم سألت: وماذا تنوي أن تعمل؟ ..

قلت: لا أدري. المهم وظيفة ليس الكلام فيها أساسياً حتى أتعلم لغة البلاد، لأني لا أعرف لغة هذا البلد.

سألت: وماذا تعرف من لغات؟ ..

قلت: لا أعرف غير اللغة العربية ولغة البلد الذي كنت فيه – بلدك – لكن ليس إلى حد الإتقان.

قالت: ظاهر بوضوح. ثم أردفت: سوف تتعلم اللغة الجديدة. وسوف تعمل في شركتي. شركة للحاسب الآلي.

ثم نظرت إلى خطاب المدرسة وقالت: إنها ابنة أختي أوصتني بك. وهي تنوي أن تلحق بك. لقد طلبت مني أن أكرمك من أجل خاطرها.

سألت: لكن ألن يعارض زوجك ذلك بمعنى أن أبيت في هذا البيت.

ولم أكن اعرف بعد أي شيء عنها، قالت ضاحكة: أنا غير متزوجة. ولم أتزوج من قبل.

وظهر لي أن عمرها يدنو من الخامسة والأربعين. ويبدو أنها تفرغت لأعمالها ونست أنها امرأة طوال هذه السنين.

سألت: ومتى ستأتي بنت أختك؟ ..

قالت: لا أدري.

أخذتني من يدي بيدها الملساء. وأدخلتني حجرة فخمة.

قالت: عادة ما لا يبيت فيها أحد لكنها تنظف يوميا لاستقبال أي زائر يأتي فجأة. قلت لها: أشكرك.

تركتني في الحجرة، وذهبت إلى داخل شقتها. لم أنم طول الليل في قطار الشرق السريع، لذلك لما دخلت الحجرة، ونفضت ثيابي عني، وارتديت منامتي، غرقت في النوم وفي الفراش الوثير. احتواني الفراش الوثير بحنو بالغ دافق، وشدني إلى السبات. وقبل أن أنام حمدت الله على أن هيأ لي ذلك الملاذ الجديد. ولا بد أنه سوف يهيئ لي رزقا جديدا لأني لم أرتكب وزرا، وليذهب رزق حكومة بلدي الملوث إلى الجحيم. كان رشوة مستترة حتى لا أتكلم وأقول إن الرئيس الحالي هو الذي قتل الرئيس السابق، وألصق بي التهمة، وأنا بريء من دم الرئيس السابق.

بدأت أتعلم اللغة الجديدة لبلد (نون) في مدرسة ملحقة بشـــركة الســيدة سوزيتا خالة المدرسة إيفلينا. أخذتني معها في سيارتها، ولــم أســألها أيــن سنذهب. وتركتني أدرس على يد شاب نبيه استطاع أن ينقل لي أسس اللغــة من خلال اللغة الثانية التي تعلمتها في المنفى. وبدا لــي أنــه أصــلا مــن المهاجرين من دولة (ميم) وتلقفته سوزيتا ليعمل عندها سندا لها. وبمـــرور الوقت عرفت منه هذه الحقيقة وهو لا يتكلم اللغتين فقط إنمــا يتكلــم اللغــة الإنجليزية أيضا ووعدني أن يعلمني إياها بعد أن أتعلم اللغة الجديدة. كمـــا أعجب بي لما استطعت أن أفتح الحاسب الآلي وأكتب عليه. فقد كان تدريبي في الفترة السابقة مفيدا لي في الفترة اللاحقة.

فوجئت بسوزيتا تأتي الساعة الثانية عشرة لتأخذني إلى مطعم فخم لنـأكل معا فيه.

قلت: إنني خجلان لأني أعيش عالة عليك.

قالت: أنت سوف تسدد ذلك كله حينما تصبح عاملا في الشركة.

سألت: وماذا سأعمل؟ ..

قالت: سوف أعلمك أن تكون فنيا في هندسة الحاسب الآلي. فأنت بعد أن تتعلم اللغة سوف تتدرب على هندسة الحاسب الآلي ثم بعد ذلك تعمل.

قلت: لكن ذلك سوف يستغرق وقتا طويلا.

سألت: ما أهمية الوقت؟ ..

قلت: ألن تسألني الشرطة خلال هذه الفترة عن مشروعية إقامتي في هذا البلد؟ ..

قالت: لا تخش شيئا .. ما دمت معك، فأنت في العمل مقفول عليك الباب. وأنت في المطعم لا يجرؤ أحد من الشرطة أن يسألك وأنت في السيارة لن يتعرض لك شرطي. وأنت في بيتي لن يجرؤ أحد على أن يطرق الباب ويسألك ما سبب وجودك؟ ..

قلت: ولكن قد أخرج وأسير في الشارع؟ ..

قالت: إذا كنت تريد أن يقبض عليك فأمش في الشارع.

قلت ضاحكا: أنا طوع أمرك ..

أصبحت في بيتها حرا أتجول كيفما أشاء. وأصبحت في شركتها أطلع على كل الأشياء. ولم يناقشني أحد لم تتجول وفيما تعبث؟ .. وماذا تحاول أن تعرف؟ ..

مرت الأيام سريعة، ولم تأت إيفلينا من بلدها. واتصلت بها السيدة وسألت: لم لم تأت؟ ..

قالت: أنا لا أستطيع في الوقت الحالي لأن إنسانا ظهر في حياتي قد ارتبطت به.

سألتها: وهذا الرجل الذي أكرمه من أجلك؟ ..

قالت: إذا كان في إمكانك إكرامه فاستمري. وإذا لم يكن ذلك ممكنا فصارحيه.

قفلت الاتصال، وجاءت تقول في مخدعي: يبدو أن مدرستك – بنت أختي – لن تأتي. يبدو أن رجلا ظهر في حياتها غيرك.

قلت متسائلا: وهل أنا كنت رجلها؟ ..

قالت: فهمت ذلك من خطابها. بمعنى أن احتفظ بك من أجلها.

قاطعتها قائلا: الآن لم يعد هناك ما يوجب الاحتفاظ بي؟ ..

قالت: أنا لم أقل ذلك. ولكن أحب أن تكون إقامتك في الدولة الجديدة إقامة شرعية.

قلت: وكيف يكون ذلك كذلك؟ ..

قالت: هناك طريقان. الطريق الأول أن تعمل بعقد معترف به أي يتقدم صاحب العمل بالعقد إلى السلطات للاعتراف بالعقد .. والطريق الثاني أن تتزوج من مواطنة من هذا البلد.

قلت: أنا لا أعرف واحدة وحتى الآن لا أجيد أي عمل.

قالت: ولكني أريدك لي ...

لم أتمكن أن أفهم كلماتها. غير أن إحساسا جعلني أمد يدي إلى جسدها اللدن وأجذبها إلي، وأطبع قبلة على شفتيها. تذكرت محاولتي الأولى مع إيفلينا حينما حاولت أن اخرج من شقتها، فشدتني إليها واستغرقنا في قبلة طويلة، ثم بدأت هي تدربني على ممارسة الحب خاصة أنني لم أكن أفهم فيه شيئا. ولما وصلنا إلى منطقة خطرة وعرة، قلت لها بلغتها: ألا تخافين أن تحملي. قالت: لا تخف. أنا أخطو خطواتي بحساب. فهل سوزيتا تخطو – هي الأخرى – خطواتها بحساب؟ .. كنت قد تمرست في مغامراتي العاطفية مع مدرستي، فاستغرقت القبلة طويلا مع سوزيتا، حتى شعرت أنها غابت عن الوعي.

ثم سألتني: هل تقبل الزواج مني؟ ..

قلت: أنت ربتي، فكيف أعرض عنك؟ ..

وهكذا انتقلت من أوربا الشرقية إلى أوربا الغربية. وتزوجت امرأة تجمع بين الأوربيتين. وصرت أجمع بين الشرق والغرب في داخلي.

## ( ١٠ )

# مشاعر جديدة
# مشاعر قديمة

تركت في بلد زوجتي عشر سنوات من الكفاح ضد الأمية والفقر والغربة. وقد تمكنت زوجتي لأن تمحو أميتي في لغتها واللغة الإنجليزية، وساعدتني في التعلم. ودربتني عل إتقان الحاسب الآلي، وتمكنت أن أحصل على شهادة في هندسة الحاسب الآلي، وأغدقت على من مالها، بل خصصت لي مالا، بدأ يربو يوما بعد يوم، وحاولت أن تنسيني آلام الغربة بحنانها وودها وكرمها. كانت تتمنى أن تزرق بطفل مني، غير أنها كانت تدخل في منطقة الغروب، فلم تنجب. وعاشت متحسرة على أيامها الماضية. وبدأت تتساءل لمن ستترك ثروتها. وقد عرفت شرعا أنني لا أرثها لأنها مسيحية وأنا مسلم. وطلبت من إيفلينا أن تأتي لتعيش معها ولم تكن تعرف قريبا لها غيرها. غير أن إيفلينا تلكأت رغم أنها لم تقترن بأحد. كان الناس في ذلك البلد لا ينجبون الكثير، لذلك كانت صلات القرابة محدودة العدد. ولما شعرت زوجتي أن الشيخوخة تداهمها، فكرت أن تطلق سراحي بإحسان، وذلك بتباعد أحدنا عن الآخر، وفتحت لي توكيلا كبيرا في بلدي الأصلي (قاف) أديره باسم يبدو للسامع انه أوربي فقد حولت اسمي العربي إلى أوربي بنطقه بالحروف اللاتينية فصار أمران كليل أدنان. وهكذا تحولت العين إلى همزة والخاء إلى كاف. فلم يتبين لمفتش الجوازات أن ذلك الاسم عربي وظن أنه أمام اسم أوربي مائة في المائة لذلك لم يشك في منبتي لأني كنت أحمل جنسية البلد الذي قدمت منه. وكنت قد حصلت عليها بعد انقضاء

خمس سنوات من زواجي من سوزيتا وكان يحق لي أن اكتسب جنسية ذلك البلد وأصبح من مواطني دولة (نون). تقصيت أخبار عائلتي سرا. عرفت أن الوالد لا يزال حيا ويعمل ساعيا في السكك الحديدية بدلا من عتال لأنه تجاوز الستين من العمر، وأولاده يمنعونه من العمل لكنه يصر على أن يعمل. والأم توقفت عن الإنجاب لبلوغها الخمسين من العمر. وعرفت أن الفقر صنع من أخي التالي لي سارقا ومن الثاني نصابا ومن الثالث تمكن من الاستقامة وحصل على دبلوم ثانوي تجاري. واستطاع هذا الأخ أن يربي الرابع فجعله طبيبا واستمر يصرف على الخامس حتى حصل على إجازة الحقوق وصار محاميا.

بدأت الاتصال بعائلتي عن طريق المحامي حتى يقوم باتخاذ إجراءات تشكيل وكالة سوزيتا للحاسب الآلي في عاصمة دولة (قاف). ولم يعرف الرجل الذي كان صبيا يوم أن نفيت من البلد من أكون. ولما أغدقت عليه من مالي وتحول من محام فقير إلى محام ثري، أفتتح له مكتبا في قلب العاصمة، اصبح طوع أمري في كل شيء.

كانت الرغبة في الانتقام قد تولدت في صدري يوم أو وطأت قدمي قلب العاصمة، وقررت أن أنتقم أولا من هؤلاء الذين حاكموني. واطلعت في المكتبة العامة على جرائد السنين الماضية فعرفت أسماء الذين حاكموني، وطلبت من أخي المحامي أن يبحث لي عن هؤلاء، لأن صاحبة الشركة في بلد (نون) كانت اتفقت معهم على أن يكونوا شركائي. وبحث الفتى، وعاد ليقول لي إن الأسماء وهمية. لذلك تأكد لي أن الطغمة الباغية لم تكتف بإلصاق تهمة القتل بي، إنما أوهمت الشعب بمحاكمتي محاكمة سرية، وأذاعت أسماء القضاة أشخاصا لا وجود لهم وأدانتني المحاكمة الصورية

وظن الناس أنه تم إعدامي، ولم يعرفوا أنني نفيت إلى الخارج باسم جديد ووظيفة وهمية وراتب ثابت يأتي رأسا من بلدي إلى المصرف. ولا أعرف ما إذا انقطع بعد تركي بلد (ميم) إلى بلد (نون). ولعلهم عرفوا بمغادرتي، وقطعوا الراتب، لكن لم يحاولوا تتبع خطاي لذلك لا يعرفون شيئا عني بعد أن غادرت المنفى. ولعل رسوخ أقدامهم في الحكم جعلهم لا يهتمون كثيرا بتتبع خطاي.

وانتقل تفكيري في الانتقام بإزاحة هذه الطغمة الباغية من الحكم. وكان في فكري سلاحان. الأول يتعلق ببعض العناصر الفاسدة من الطغمة الباغية، لذلك آليت على نفسي كشفها وكشف فسادها أمام الناس بشرط أن أكون بعيدا عن ميدان المعركة وبعيدا عن الاتهام والإدانة. والبعض الآخر يجب ألا يثق بهم الشعب ويقوم بعزلهم ولن يتم عزلة إلا بالقضاء على الفقر والجهل والمرض. والقضاء على الفقر لن يكون إلا بإنشاء مشروعات جديدة تتولد عنها فرص عمل كافية للقضاء على الفقر. ثم تأهيل الشباب وتنميته حتى يعرف كيف يدافع عن نفسه وعن حقوقه ويحكم نفسه بنفسه ثم إقامة المستشفيات التي يكون العلاج فيها بمقدور الكافة. ولما كانت سوزيتا قد أمدتني بمال وفير لإنشاء وكالة الحاسب الآلي، لذلك فكرت أن أتوسع وأقوم بإنشاء شركة للصناعات الغذائية بها أستطيع أن أغذي الشعب فيكون صحيحا، وأغذي جيبه فيكون قادرا على الحياة ومدافعا عنها.

انتهزت الفرصة أن وزير الصناعة - وهو من الطغمة الباغية - كان فاسدا. يريد أن يرتشي حتى يوافق على الشركة التي بها عنصر أجنبي. وقد برز على رأس هذه الشركة أخي المحامي. فطلبت منه أن يدبر مقلبا لذلك الوزير. ويكشفه أمام النيابة العامة بأنه مرتش.

ولم يتمكن رئيس الدولة من إبراء ساحة الوزير المرتشي لأن التهمة قد لصقت به تماما وهو متلبس بالرشوة. وانهالت الشكاوي ضده بعد تقديمه للمحاكمة. وصدر الحكم ضده بالسجن خمس عشرة سنة. شعرت بعدها بالراحة وأنا أتخلص من واحد ألصق بي تهمة القتل مع أني بريء. وبقى أربعة لا يزالون يحكمون بيد من حديد وفي يدهم شعلة من نار. يظن الناس أنها نار الوطنية ولكنها في الحقيقة نار تحرق الناس دون أن يدروا.

بالتدريج بدأت أرعى أهلي وقد طلبت من المحامي تشغيل أخي الحاصل على دبلوم التجارة في شركة الصناعات الغذائية التي أنشئت رغم أنف الوزير المخلوع .. وطلبت منه أن ينتسب إلى الجامعة للدراسة في كلية التجارة لأني أريد ترقيته حتى يكون جديرا بمنصب مدير الشئون المالية بالشركة. وكان التفاهم بيننا باللغة العربية، هو باللهجة الدارجة وأنا باللغة العربية غير المتقنة. مصطنعا إياها حتى أخفي شخصيتي. كنت أرى أن تعليم الناس سوف يؤدي إلى تنوير عقولهم ومن ثم لن يقبلوا الضيم أبدا بعد أن يرتفع مستواهم العلمي، وسوف يقاومون الظلم باللين تارة وبالقوة تارة أخرى. ولذلك بدأت بأهلي دون أن يدروا.

لقد عرفت من المحامي أن أخاه صاحب دبلوم التجارة أفنى شبابه في سبيل تعليم أخويه الصغيرين الباقيين. وتمكن واحد منهما من أن يكون طبيبا والثاني الماثل أمامي محاميا لذلك أردت أن أكافئه على صنيعه بأن يدرس التجارة ويكون مديرا في شركتي التي أنهال المواطنون على المساهمة فيها. كانت إقامة ثمرة للصناعات الغذائية طاقة نور تفتح فرص عمل للنساء والرجال في منطقة يندر فيها العمل. وتعمدت ألا أكسب كثيرا من وراء الشركة وأن توزع منتجاتها بأسعار زهيدة مما دفع الناس لشراء منتجاتها

وزاد الإنتاج بالتالي. كل ذلك وأنا وراء الستار لا أظهر متفرغا تماما لشركة الحاسب الآلي متصلا بأخي المحامي في السر وهو الظاهر أمام الناس بعقد وكالة مني لا يبرزه إلا وقت اللزوم. ولما افتخر المحامي بأن له أخا طبيبا طلبت أن أقابله، وطلبت منه أن يسعى في سبيل إنشاء مستشفى كبير في المنطقة المقفرة المليئة بالناس البسطاء ليعالج الناس بأسعار زهيدة وعليه أن يقوم بإدارتها. تهيب في البداية لأنه صغير السن قليل التجربة غير أنه خاض التجربة بدفع مني وحماس منه.

افتتحت سلسلة من المدارس بعد سلسلة من المستشفيات لتعليم الناس. كنت آمل أن تطالب الناس بانتخابات نزيهة، وأن يكون ممثلو الشعب قد وصلوا إلى مراكزهم دون تزوير أو محاباة من السلطة أو إغداق أموال من الدولة على مناصريها إنما بسبب شعبيتهم وحب الخير للجماهير وكفاءتهم التي يراها الشعب فيهم. وكنت أنتظر أن يتم الضغط على الطغمة الباغية فيرضخوا لمطالب الناس والمثقفين منهم. ولكن يبدو أن هذه الطغمة تنبهت لهذا الكم الهائل من المستشفيات ذات الرسوم الزهيدة وذلك الكم الهائل من المدارس التي تنور الناس ورسالتها الرائعة فبدءوا يحاربونها بزعم أن رأس المال الأجنبي يحركها فتنازلت سرا لأخي المحامي عن شركة الصناعات الغذائية ولأخي الحاصل على بكالوريوس التجارة عن المدارس وأخي الطبيب عن المستشفيات وحاولوا ملاحقتهم بسؤال من أين لك هذا؟ .. غير أن الثلاثة ردوا من عند الله ولسنا موظفين في الحكومة حتى تسألوا ذلك؟ ..

في ذلك الوقت، مرضت أمي فنقلت إلى مستشفي، وطلب مني أخي المحامي أن يتفرغ لزيارتها، فأذنت له. وقد برح بي الشوق لرؤيتها. إذ كنت اعتقد أن بفضل دعواتها وصلت إلى هذه المرتبة.

دخلت عليها، وهي وحيدة في حجرة مستقلة، لـــم يكــن أقــل مــن أن تخصص لأم المحامي والمدير الطبيب حجرة خاصة، وتعمدت أن أدخل بعد أن غادرت الممرضة حجرتها .. وكانت تقيم في إحدى المستشـــفيات التـــي يديرها أخي الرابع علنا وآلت إليه سرا.

رأتني، فنطقت باسمي على الفور. كل أخوتي لم يعرفوني إلا هي فـــإن قلبها دلها علي. واحتضنتها بشغف. والشوق يدغدغ كل أعصّـــابي ويكـــاد يسكرني من قمة رأسي إلى أخمص قدمي. قالت : إذن أنت لـــم تعـــدم؟ .. قلت: لا .. يا أمي أنا بريء. لقد نفوني خارج البلاد حتى لا يفتضح أمرهـــم في مؤامرة قتل رئيس الدولة. وألصقوا بي التهمة حتى ينقذوا أنفسهم منـــها أمام الناس. ثم قلت: لقد أكرمني الله في الخارج وعدت إلى البلاد بجنســـية جديدة. وأنا الذي أنشأت شركات أولادك. وأنا الذي أرعاهم. لأن الله رزقني الكثير فلم أبخل عليهم. قالت: رعاك الله يا ولدي وبارك في مـــالك. قلـــت: أرجو ألا تبلغي أحدا بوجودي حتى لا أهرب من جديد من هذا البلد الـــذي أحبه. قالت وهي تعاني من آلام المرض ووجها باهت أصفر اللون: وهل أنا مجنونة؟ .. أنت ابني حبيبي ولا يمكن أن أضرك. يكفي أن أراك أمامي من حين لآخر.

قلت: ولا حتى أخوتي أو أبي. قالت: ثق بي.

خرجت من المستشفى وأنا أحمل في قلبي مشاعر جديـــدة فـــي قلبـــي، مختلفة عن المشاعر القديمة التي كانت تجتاحني. كنت في الماضي أعـــاني من آلام الغربة، وشوق يجتاحني، والآن أحس بأني ارتويت وأن العطش قـــد زال إلى الأبد. لقد لازمتني المشاعر القديمة حتى بعد العودة إلى الوطن ولم يخفف منها وجود أخوة ثلاث حولي ربما لأنهم لا يعرفون من أكون. إنـــهم

يعرفون فقط أنني رجل فاضل قادم من أوربا يكافح الظلم سرا في هذا البلـــد الجديد. يتكلم اللغة العربية دون إجادة. وأحب ناس هذا البلد وطلب منـــهم أن يعملوا لخيرهم. أما الآن فأنا أشعر بأن آلام الغربة قد انزاحت وانتهت بعـــد أن عرفت أمي أن الميت لا يزال حيا.

( ١١ )

# جنسية قديمة
# جنسية جديدة

الكلاب.. بل الأحرى الذئاب .. صرت أترصد ماضيهم وأفحصه من جرائد بلدي. وجدتها في مكتبة عامة. وكنت من قبل أنقب عن ماضيهم في جرائد البلد الأوربي القديمة.

في جرائد بلدي في زمن معاصر لاتهامي. قرأت أن ساعيا بسيطا قتل رئيس الدولة. ونفى المسئولون الجدد أنها مؤامرة. وأنني قتلته بتحريض من دولة أخرى أو أن هناك أعوانا لي في الداخل .. وقد تم التحقيق معي واكتشفوا أن رئيس الدولة سبني بسبب إهمال في العمل. (وكان رحمه الله لا ينطق العيب من فمه على الإطلاق). فثار الدم في عروقي وتهيجت، واختلست سكين قطع الأوراق وطعنته في عنقه فمات في الحال. وتمت المحاكمة في سرية تامة حتى لا تثور الجماهير كما زعموا. وظهرت صورتي مرة واحدة في الجرائد ثم اختفت. وأعلن بعد ذلك أن محكمة شكلت من فلان وعلان وآخرين. وأن النيابة العامة، سلطة الاتهام، كان يتولاها فلان الفلاني. وأن الدفاع طلب الرأفة لأن المتهم لم يكن ينوي قتل الرئيس. غير أن المحكمة لم تأخذ بوجهة نظر الدفاع وتم إعدامي في يوم ( ... ) شهر ( .... ) سنة ( ... ). وهو ذلك اليوم الذي تم نفي خارج البلاد باسم جديد وجواز سفر يحمل ذلك الاسم. واتضح لي بعد عودتي أن أسماء القضاة وهمية وكذلك اسمي ممثل الإدعاء والدفاع.

وقرأت شيئا مثل هذه الوقائع في جرائد الدول السابقة، وحاولت أن أبحث عن حادثة الراقصة التي قتلت الطالبة سواء في جرائد دولة (ميم) التي كانت تشتريها زوجتي سوزيتا بانتظام، أو حتى جرائد دولة (نون) التي تجنست بجنسيتها، فلم أعثر على أي خبر عن الجريمة. وإن كانت جرائد دولة (ميم) كانت قد نشرت خبرا عن مقتل طالبة دولة (قاف) التي كانت تدرس العلوم النووية، وأعلنت الشرطة وقتها أن الجريمة يشوبها الغموض، ولم تتمكن من معرفة الفاعل الجاني. وبدا لي أنهم أطلقوا سراح الراقصة سارة طالبة العلوم النووية، ونفوها خارج البلاد بضغط من دولتها (سين) التي كان لها نفوذ في كل دول أوربا، ولم يحاكموها على خطف إنسان. فأين هو ذلك الإنسان؟ .. غادر البلاد منفيا فكأنه مات. ولا أهمية لموضوعه. أما قتلها طالبة العلوم النووية أمينة فلا إثبات عليه. لا شهود ولا اعتراف إنما كل ما في الأمر مجرد تخمين.

كلما فكرت في الماضي، أدركت أن حياتي لم تذهب هدرا. فقد أصررت أن استرد مستقبلي الضائع. وتحولت من ساع إلى عاطل إلى مبرمج للحاسب الآلي. وتزوجت تلك الثرية المهاجرة وتجنست بجنسيتها الجديدة. وصار المال يملأ جيبي. والعلم يبث في رأسي. والمرأة بين يدي ولو أنها عجوز غير أنها جميلة غير منفرة بشوشة الوجه حلوة السمات. لكن هذه العجوز كانت على درجة عالية من الإحساس فقد وجدت أنها احتكرت شبابي فأرادت أن تطلق إرادتي. وكانت قد عرفت طرفا من حكايتي وعرفت أنني مسلم يجوز لي أن أتزوج مثنى وثلاث ورباع من النساء فاخترعت فكرة توسع شركتها في بلادي القديمة وأن أدير وكالة لها فيها وهناك من الممكن أن أتزوج بأخرى وأرزق بأطفال حرمتني شيخوختها منهم. غير أني

لم أتزوج . من يتزوج غريب ذا جنسية مغايرة لجنسية البلد الذي يقيم فيـــه. ولم أعلن أنني حامل الجنسية الجديدة ابن لهذا البلد لذلك امتنعت عن الزواج.

واستمررت أعاني من الوحدة والغربة في بلدي الحقيقي لأن النـــاس لا تندمج معي أو لأني أخشى الاندماج مع الناس حتى لا يفتضـــح أمــري. إذ كانت لا زالت الطغمة الباغية تسيطر على الحكم، رغم مرور عشر سـنوات على سيطرتهم على الحكم، ولم يستطع أحد أن يعزلهم. وكنـــت مطمئنـــا أن أحدا لن يتعرف علي فالاسم جديد مكتوب بلغة الجنسية الجديدة، واختفى مـــا يتعلق بالجنسية القديمة. وشعري الأصفر عاد أسود ولو أنه امتـــلأ بالشـــعر الأبيض بسبب الصبغة المستمرة باللون الأصفر في الزمن المـــاضي. لقـــد أثرت الصبغة في جذور الشعر وكوتها فكان الشعر الأبيض. ولكنني لم أطلق شاربي واستمررت حليق الشارب واللحية.

كنت أدير سياسات شركاتي فقط التي تحولت باسم أخوتي من مقر وكالة الحاسب الآلي الواقع في وسط العاصمة. تركت الثلوج في بلـــدي الجديـــد لأواجه الحر اللافح في بلدي القديم. غير أن المقر كان مؤثثا وبـــه تكييـــف مركزي فلم أكن أشعر بهذا الحر. ولا حتى في بيتي، فلم أعد لأقيم في بيـــت قديم إنما في تلك العمارات الشاهقة في وسط المدينة.

خفف من الغربة اتصالي الدائم بأخوتي المحامي فـــي شـــركة الأغذيـــة وصاحب دبلوم التجارة الذي ترقى واصبـــح صـــاحب شـــهادة عليـــا فـــي المؤسسات التعليمية التي بدأت تنتشـــر فـــي أنحـــاء البـــلاد كـــالأخطبوط. والمستشفيات التي يديرها أخي الطبيب. ولم تكن سوزيتا تبخل علي بالمـــال. كلما طلبت منها دفعة منه أمدتني به. وكان الاتصال بيننـــا لا يـــهدأ ســـواء بسبب الأعمال المختلفة أو بسبب الشوق، فهي امرأة لا تنسى.

أما أخوي السارق والنصاب فقد كانا يستوفيان عقوبة ثلاث سنوات في السجن، وقد انتظرت خروجهما من السجن حتى أستطيع أن انتشلهما من عالم الجريمة إلى عالم الطريق المستقيم. وكنت قد عرفت أخبارهما صدفة عن طريق شاب عمل معي في بداية إنشاء الوكالة، فقد كان يعرف أخي المحامي ويعلم أن أسرته تعاني من الفقر المدقع. وحكى لي عن قصة الولد الكبير في هذه العائلة المسكينة الذي تم إعدامه لأنه قتل رئيس الدولة وأن الولدين التاليين له كلاهما دخلا السجن الأول بتهمة السرقة والثاني بتهمة النصب. غير أن أخوة المحامي الباقيين أحدهما صار طبيبا والثاني لم يستكمل تعليمه العالي وصرف على تعليم الطبيب والمحامي.

ولما تعاقدت مع أخي المحامي أن يعمل معي، كان يبخل علي بمعلومات عن أخويه المسجونين، شاعرا بالعار، إلى أن فاجأته بمعرفتي بوضعهما، وطلبت منه أن يعملا في شركة الصناعات الغذائية بمجرد خروجهما في وظيفتين محترمتين، ويدربهما على أعمال هاتين الوظيفتين.

أذكر أن أخي المحامي لما التقى بي لأول مرة كان يمعن النظر إلي طويلا، ولعله كان يتساءل: أين رأيت ذلك الأجنبي من قبل؟ .. ويبدو أنه وجد أن الخير سوف يأتي علي يدي، فلما أمرته أن يترك المحامي الذي يعمل لديه للعمل في شركتي، تركه على الفور وأطاع. ولما سألته عن مقر سكنه أجاب أنه يسكن في أحد الأحياء الفقيرة، فطلبت منه أن ينتقل هو وأسرته – أبوه وأخواه وأمه المريضة – إلى شقة فخمة في وسط المدينة. ولعل حال لسانه كان يسأل وقتئذ: لم هذا كله؟ .. غير أنه لم يسأل، ولم أحاول أن أفسر له. ولعله لم يكن يعرف أنني أخوه وأنني لا أرضى أن أرى والدي وأخوتي يعيشون في حالة مزرية، وأنا أعيش في نعيم. وانتقلت الأسرة إلى الشقة الجديدة الواسعة ذات الشمس المشرقة.

كنت أشعر خلال فترة تأسيس الشركات أن هناك رسالة منوطة بي علي أن أنفذها. ألا وهي الانتقام من الطغمة الباغية. ولم أكن أسعى إلى تكوين حزب دموي واستعمل القوة وأقوم باغتيال هذه الطغمة، بتسليط أفراد مأجورين لقتلهم أو حتى تعذيبهم، إنما كانت الفكرة أن أجردهم من سلطاتهم، وأترك للشعب بعد ذلك أن يتولى أمرهم، بعد أن يتم تنويره وتنميته ورفع الجهل عنه ونشر الوعي الصحي بينه. كان أصحاب الاستبداد قد تولوا الحكم بأسلوب الغاية تبرر الوسيلة، ولكن الغاية انحرفت بعد ذلك، ولم تكن لصالح الشعب إنما لصالح أنفسهم. لذلك انتشر الفساد في البلد، وعمت الرشوة، وصار كل شيء يشترى في هذا البلد حتى الضمائر. وإذا ما عزل الشعب هذه الطغمة الباغية، فسوف يختفي الفساد وتوابعه. والوسيلة الوحيدة لذلك هي المال. فمادام استعمال القوة متعذرا وغير شرعي فإن المال غير متعذر. وعن طريقه يمكن أن نحول الشعب من شعب متخلف إلى شعب متقدم، فيكون مقاوما للسلطة المستبدة .

سألت عن موعد خروج اللص والنصاب من السجن، فبدا المحامي مترددا كأنه كان ينوي أن يتبرأ منهما، ولا يوفي بأمري أن يسند إليهما وظيفتين محترمتين، غير أنه أعترف أن خروجهما قريب. وكان قد مضى عليهما عقوبة ثلاث سنوات، انتهت بعد وصولي إلى أرض الوطن بقليل. وطلبت من المحامي أن يضمهما إلى عائلته ولا يحرمهما من الاحترام الواجب فهما نتاج ظروفهما المخزية وليس من طبعهما الإجرام. ولما توظفا الأخوان، شعرت حينئذ أنني أرد الجميل إلى والدي. ولأخوتي. لقد تعلما مهنة أكسبتهما مكانة في المصنع فيما بعد. وعرفوا فضلي عليهم ولعلهم جميعا كانوا يسألون: لم يرعانا ذلك الرجل الأجنبي؟ ... ولم خص هذه الأسرة الفقيرة المنكوبة بالرعاية؟ .. ولعل الأم هي الوحيدة التي كانت تعرف.

( ١٢ )

# شـــوق محـــرم
# شـــوق حـــلال

اشتد المرض على أمي، ولما جئت إلى المستشفى لأسأل عنها، أخـبرني كبير الأطباء بأن علاجها بالخارج لو كانت عائلتها قادرة علـى مصـاريف الخارج. كنت أكلمه باللغة العربية فظن أنني قريب لها. ولا يعرف أنها أمي لأني لم أظهر في الصورة بهذا المظهر. وقررت أمام أبنائها الخمسة أخوتي أنني سآخذها للعلاج في الخارج. غير أن اللص – الذي اصبـح ميكانيكيـا ماهرا – اعترض وقال: كيف تذهب أمي مع رجل غريب؟ .. قالت بثقـة: سأذهب معه حتى ولو إلى جهنم.

دخل الأب بعد أن نقل إليه النصاب – الذي أصبح كـهربائيا –قـراري وكان جالسا بالخارج احتراما لصاحب الشركات خجلا أن يقابله وهو يقـول: إذا كان ولابد فسوف أذهب معها. ثم اقترب مني وتأملني ونطـق باسـمي الحقيقي. وسالت دموعي وهو يحتضني والأخوة الخمسة فاغرون أفواهـهم وقد أصابتهم الدهشة. وسالت دموع الأب المكلوم على ابنه الكبير. دمـوع رجل عجوز تجاوز الستين وخفت عنه قيود الوظيفة المرهقة بضغـط مـن أبنائه البررة. وذهل الجميع ولم ينطقوا. وأخيرا عرفوا أنني أخوهم لم أمـت ولم يحدث أن تم إعدامي. غير أني طلبت من أخوتي وأبي ألا يذيعوا السـر وألا يعلنوا أنني على قيد الحياة. وطلبت منهم أن يقرروا أن المحـامي هـو الذي أرسل أمي إلى الخارج باعتباره أكثر الأخوة ثراء. ولم يكن لأحـد أن

يتقصى عن ذهاب وإياب أمي ولكنها الحيطة فقط. خاصة أن العائلة انتقلت من الحي الشعبي إلى أحد الأحياء الراقية في العاصمة.

ركبت أمي الطائرة لأول مرة في حياتها، وهي غير مصدقة أنها بجانب ابنها البكر وأنها متجهة إلى بلد أوربي عريق. سافرت بها وحدي إلى بلد زوجتي لشهرته في علاج المرض الذي أصاب أمي .. ودخلت مرحبا بي لأني من مواطني ذلك البلد. ولم آخذ أمي إلى زوجتي المتقدمة في السن، حتى لا تتحرك نوازع الإشفاق في أمي، فتبكي ابنها وتتحسر على شبابه الضائع مع عجوز لن تخلف له ولدا يحمل اسمه في الدنيا. وهي لا تعرف أن هذه العجوز هي سبب سعد ابنها وهنائه وأمنه.

بينما أنا أعد لإقامة أمي في الفندق، وجدت وزير الصناعة المتهم والمدان بالرشوة والمفترض أنه مسجون في سجون بلدي الأصلي، يتناقش مع مستقبل الزبائن بالفندق. وأدركت أنها خطة تتبعها الطغمة الباغية. إذ سقط أحدهم فلا طعن فيه إنما يتوارى عن الأنظار ويعيش سعيدا على حساب الشعب. ومن قبل لفقت الطغمة تهمة قتل رئيس الدولة لي وأطلقوا سراحي في دولة (ميم) وزعموا أن محاكمتي تمت وتم إعدامي. لم أتقدم منه ولم أعره اهتماما. يكفي أنني عرفت حقيقة حكام بلدي غير المخلصين لشعبهم. إنما لأنفسهم والذين يناصرونهم. لقد قبض على ذلك الوزير متلبسا بالرشوة، وصدر ضده حكم بالسجن، وتمت المحاكمة، غير أنه تم تهريبه إلى خارج البلاد ليعيش حياة رغدة على حساب الحكومة وينعم بالرخاء على حساب الناس الأبرياء دافعي الضرائب.

الغريب أنهم لم يرسلوه إلى دولة أوربية شرقية مثلما فعلوا معي فقد أرسلوني إلى دولة أوربية ليست غربية. وكانوا قد بدلوا في ملامحي غير

أنهم لم يبدلوا في ملامحه. يكفي أنهم غيروا اسمه فقط فقد سألت المستقبل عن اسم ذلك الرجل الذي وقف يناقشه طويلا، فغرفت أن اسمه مختلف عن اسمه في بلدنا.

أودعت أمي المستشفى في اليوم التالي، وذهبت لزيارة زوجي العجوز، فوجئت بأنها لا تزال تمارس أعمالها في شركاتها النامية. وفوجئت مفاجأة أخرى لم تخطر ببالي أبدا أن إيفلينا مدرستي السابقة والمرأة التي بدأت أحبها في البلد الأوربي الشرقي (ميم) ضيفة على خالتها سوزيتا. وتقيم معها وقد ودعت بلدها لتعيش في كنف السيدة العجوز زوجتي.

سألتها: ألم تتزوجي؟ ..

قالت: لا ..

عدت أسألها: لكن خالتك قالت لي إنك تعرفت برجل وترغبين في الاقتران به؟ ..

قالت: كان ذلك مشروعا قديما لم ير النور.

سألت: وكم شهرا أقمت هنا؟ ..

ردت قائلة: إن هذا هو شهري الثالث.

قلت مستغربا: لم تقل لي سوزيتا وأنا أتحدث إليها هاتفيا.

قالت: ظننت أنك استمرأت البقاء في بلدك ولن تفكر أن تعود.

تحركت نحوي تريد أن تقبلني. غير أني أشحت عنها ورددتها وأنا أقول: لا تنسي أنني زوج خالتك.

قالت: ولكني اشتاق إليك. وأريد أن أروي شوقي.

قلت: هذا شوق محرم. زمان كان من الممكن أن تروي الشوق لأنه كان شوقا حلالا.

قالت: وما العمل؟ .. كيف سأكون بالقرب منك واشتاق إليك ولا أضمك إلي.

قلت: يمكن أن تعملي في أحد شركات خالتك من الساعة الثامنة صباحا حتى الساعة الخامسة مساء. وتعودي للنوم إلى صباح اليوم التالي. وفي أيام العطلات تخرجين لكي تبتعدي عني ومن ثم لا نلتقي أبدا. نعيش في بيت واحد وكأننا لا نعيش في نفس البيت.

قالت: وهل أهون عليك لهذه الدرجة؟ ..

قلت: أنا رجل مستقيم لا يمكنني أن ارتكب فاحشة.

سألت: ولم عدت؟ ..

قلت: إنني اصطحب أمي للعلاج. وحينما يتم علاجها سأعود إلى بلدي.

سألت في انزعاج: وهل تترك زوجتك هكذا بالسنين.

قلت: سوزيتا أصبحت تعفى الرجال. هي التي تريد ذلك. أصبحت لا تطيق الجنس لتقدمها في السن. سرحتني بمعروف وأقامت لي شركة في بلدي بل تمدني بالمال من حين لآخر. توسعت في أعمالي في بلدي بفضلها. وجئت اسلم عليها مادمت في بلدها.

قالت: إذن طلقها وكن لي.

قلت: إذا طلبت هي ذلك، فسوف ألبي طلبها. ولكن لا أضمن أن أروى شوقك إلي الآن. لأن بعد علاج أمي سأعود إلى بلادي.

قالت: لقد حرمتني منك أكثر من عشر سنوات. والآن تريد أن تحرمني العمر كله. ولم يبق من العمر إلا القليل.

قلت: إذا كنت تريدين أن تأتي معي فلا بأس.

قالت: أنا أذهب معك إلى آخر الدنيا .. إذا وافقت على اصطحابي.

سألت مستعجبا: إذا كنت حقا كنت تشتاقين إلي فلم لم تأتي حينما طلبتك خالتك بالمجيء؟ ..

قالت: لم أعرف قيمة حبي لك إلا بعد فوات الأوان. وحينما أبلغتني خالتي أنها تزوجتك. لم استطع الحضور وأنت معها. ولما أبلغتني أنك سافرت لتنشئ شركة في بلدك جئت لأتنس بها وتأتنس بي وأرعاها في نهاية العمر.

جاءت سوزيتا زوجتي العجوز، لتشاهد أننا نتكلم، ولم ترنا منضمين أو متعانقين كما يظهر في الأفلام، فتقرر الانفصال، إنما حدست أننا عاشقان، وأن العشق تجدد.

وعانقتها بشوق، وتغدينا معا، ثم جلسنا معا كما طلبت.

قالت: لقد شبعت من الدنيا. وأصبح علي الآن أن أعتزل.

قلت: لم هذه النبرة من اليأس؟ ..

قالت: لقد نويت أن أوزع تركتي عليكما أنتما الاثنان. أنت بصفتك بنت أختي الوريثة الوحيدة لي. وأنت بصفتك زوجي. وسوف أجنب موردا ماليا لي يقيني من العوز طول حياتي الباقية ثم يؤول إليك يا إيفلينا ما يتبقى منه بالطبع.

قلت: ولم التسرع في ذلك. أكتبي وصية بذلك. وعيشي حياتك.

قالت دون أن تعبأ برأي: هناك خطوة أخرى. أرجو بعد توزيع ما أملك عليكما أن ننفصل أنا وأومران وأن يتزوج أومران من بنت أختي إيفلينا. لأنها أحق به مني. فأنتما لا زلتما في شرخ الشباب. وكان من الواجب أن تلتحما منذ زمن بعيد. ثم أنا أعاني الآن من الشيخوخة. نسيان. صد نفس. عدم إقبال على الحياة، ولذلك أصبحت عبئا على زوجي.

قلت: لا تقولي ذلك.

قالت: هذا رأي. وهذه إرادتي أرجو أن تحققاها لي.

بهت من قرارها. ورضخت لإرادتها.

تم انفصالنا أمام المحكمة. ثم تزوجت بنت أختها زواجا مدنيا أمام موثق. وآلت إلي ثروة لا تقدر بمال. استغربت تضحيتها. فأين هي المرأة الآن ذات العقل الراجح التي تضحي بهنائها وزوجها وثروتها من أجل إسعاد الآخرين؟ ..

وكان – في هذه الحالة – علي أن أعرف أمي بزوجتي الجديدة، ولو أني لم أقل لها أنها جديدة. ولم أذكر لها إنني كنت متزوجا من خالتها. وكان الانفصال، وإلا الجمع بين الخالة وبنت الأخت من المحرمات مثلما هو حرام الجمع بين الأم وابنتها. وإن كان لا يجوز أن أطلق الأم لأتزوج ابنتها. لكن من الجائز أن أطلق الخالة لأتزوج بنت أختها.

ولأول مرة منذ أكثر من عشر سنوات أشعر أنني في فراشي مع أنثى غض.

استمر أخي المحامي في تنفيذ خطتي في تنمية قوى الشعب في بلدي الأصلي. فاستمر يقيم المصانع ويمحو أمية الجهلاء ويدربهم على تشغيل

المصانع ويعالج الفقراء مجانا أو بأسعار رمزية ودخل في مشروعات جديدة تخص بناء المساكن للناس البسطاء. وكنت أداوم الاتصال به لأطمئنه على أمنا ولا أنسى أن أكلم أبي وأخوتي وأزف لهم خبر تماثل أمنا للشفاء. وفي نفس الوقت كنت أحثهم على الاستمرار في العمل والتجديد والتوسع. بينما أنا غارق في العسل مع بنت أخت طليقتي زوجتي الجديدة. وأعيش في نفس البيت الذي كنت أسكن فيه مع زوجتي القديمة. ولولا أن قوانين البلد لا تبيح الجمع بين أكثر من زوجة لكنت استمررت متزوجا الخالة. لكن كانت شريعتي تمنعني من الجمع بين الأخت والخالة لذلك طلقت الأولى وضممت إلي الثانية.

لم أشعر في يوم من الأيام أن بنت الأخت تظهر حبها لي أمام خالتها متناسية أنها كانت زوجتي السابقة. وكانت الخالة سعيدة لأنها تعيش بين اثنين يعترفان بجمائلها ويعدانها من أعز الأحباء.

كنت أدرك أن نتائج توسعي في تعليم الناس ورعايتهم صحيا وثقافيا لن تؤتي ثمارها بين يوم وليلة. فإن ثمار هذه المجهودات لا تظهر في سنة وسنتين إنما في سنين طويلة. غير أن الأقدار ساعدتني في رؤية الطغمة الباغية بعيدة عن الحكم. وانتشال البلاد من الفساد الذي استشرى بها. إذ سقطت الطائرة بهذه الطغمة الباغية أثناء تنقلهم من إقليم إلى آخر. ولم ينج من الحادث أحد ولا حتى الطيار، وكنت قد ظننت انه أراد أن يطيح بهم وينجو بنفسه ولكنه مات معهم لذلك أدركت أن الموت لم يكن مدبرا.

تولى الحكم مجموعة جديدة ظهرت فجأة دون انتخابات وفرضت سلطانها، واستولت على الحكم دون سند شرعي. ولذلك طلبت من أخي أن

يستمر يعمل على تنمية مدارك الشعب لأنه بهذه التنمية سوف ينقلب الحال من سيء إلى أحسن.

وكما هي العادة التي يكشف فيها عصر معاصر آثام عصر مضى، فقد قمت باستئجار مخبر سري أفهمته أن وزير الصناعة السابق في بلدي (ولم أفهمه بطبيعة الحال إنها بلدي) كان قد حكم عليه بالسجن، غير أن العهد البائد قام بإدانته ثم قام بتسريحه إلى بلد المخبر. وأنه الآن يعيش حرا، وينتحل اسما جديدا، ويعيش على موارد مالية تأتيه من البلد السابق. ولما قام المخبر بتتبع أثر وزير الصناعة اكتشف أنه غادر الفندق الذي أرشدته إليه، ولم يدب اليأس في قلب المخبر بل قام بفحص سجلات الأجانب في البلد كلها، وعرف أن الرجل أعتزل الناس ويعيش في ريف البلد، باسمه الجديد، وأن الموارد المالية لا زالت تصل إليه، ولا يعرف السبب رغم أن النظام تغير، وجاء حكام جدد، المفروض أن يقطعوا عنه تلك النفقة، بيد أنه بدا للمخبر أن الحكام الجدد ضالعون مع الحكام القدامى.

قام المخبر بتصوير الرجل وبيته الجديد في الريف، وتصوير جواز سفره، واتضح أنه مضاف إلى قوة سفارة البلد الذي هو بلدي. وقام المخبر بناء على طلبي بإبلاغ كل الصحف العالمية والصحف العربية بل وأرسل نص تقريره إلى صحف بلدي. وقبض مبلغا من المال من الصحف المختلفة لكن الصحف المحلية رفضت أن تنشر الخبر. واضطر الحكام الجدد أن يعلنوا أن ذلك الشخص المشار إليه في الصحف الأجنبية لا ينتمي إلى السفارة، وأن الوزير السابق لا يزال مسجونا، وأن على الصحفيين أن يتفضلوا ويشاهدوا بأنفسهم الوزير السابق المسجون. وأن المخبر ما هو إلا

رجل يدس للحكم الجديد بفرية لا تعقل. ولم يتفضل أحـــد مـــن الصحفييـــن برؤية الوزير السجين، فما كان الأمر إلا إعلانا مزيفا.

وانتقل الوزير السابق من الريف وذاب في المدينة. بل بعد أيـــام غـــادر الدولة إلى دولة أخرى. واستغربت من نفوذ ذلك الوزير السابق وقدراته؟ ..

لهذا السبب اضطررت أن أكتب هذا الكتاب لأدلل به على أني مظلوم لم أقتل أحدا وأن الحكم السابق في بلدي هو الذي قتل رئيس الدولة ولصق بـــي التهمة. وأنني استمررت عدة شهور أتقاضى راتبا شهريا من الدولة الفاسدة. وتركت ذلك الراتب لما فضحت مقتل الطالبة بكلية العلوم بدولة (ميم) وهـــي مواطنة من بلدي. ولولا تلك المرأة الرائعة التي قابلتها في بلدي الجديد لمـــا كنت على قيد الحياة ولتضورت جوعا لانقطاع مورد الرزق عنـــي. ولعـــل دولتي السابقة هي التي أوعزت إلى الشرطة في (ميم) أن تطردني رغم أني كشفت لها عن مقتل طالبة العلوم النووية بيد امرأة تنتمي إلى دولة الأعـــداء. ربما تقرير المخبر يمكن نفيه لكن هل يستطيع أحد أن ينفي روايتي؟ ..

عدت مع أمي بعد شفائها ومعي زوجتي إلى بلدي الأصلـــي لأواصـــل الكفاح هناك. ومعي أيضا ذلك الكتاب الذي كتبته باللغة العربية. وفيه حقيقـــة الميت الذي لم يمت ومازال حيا يتذكر ما حدث له. ووقعت الكتاب باســـمي الأصلي. ولما ظهر في الأسواق أسرعت الحكومة الجديدة بمصادرة الكتـــاب دون حكم قضائي. وعرفت وقتها أن العهد الحاضر ما هو إلا امتداد للعـــهد البائد. وفتشوا عن كاتب الرواية غير أنهم لم يجدوه. ولـــم يعرفـــوا أيضـــا المطبعة التي طبعت الكتاب لأن اسمها كان مزيفا بل الصحيفة التي قـــامت بتوزيع الكتاب قبل مصادرته أدلت باسم شخص لم يستدل على عنوانه.

غادرت البلاد أنا وزوجتي، حتى تهدأ الزوبعة التي أثارها الكتاب، ولـــو أنها كانت زوبعة مستترة. وقد تركت أخوتي يديرون الأعمال التي أنشـــأتها في وطني، وعدت إلى بلد (نون) لأدير أعمال زوجتي الســـابقة تشـــاركني زوجتي الحالية في الإدارة. غير أن الحنين عاد إلى فعدت أكتـــب الكتـــاب بلغتي الجديدة وسعيت إلى ترجمته باللغتين الإنجليزيـــة والفرنســـية. وراج الكتاب في أنحاء العالم. وعرفت من أخي المحامي أن الكتاب منع من دخول البلد. والسر معروف.

الرياض في ٢٦ / ٩ / ٢٠٠٠